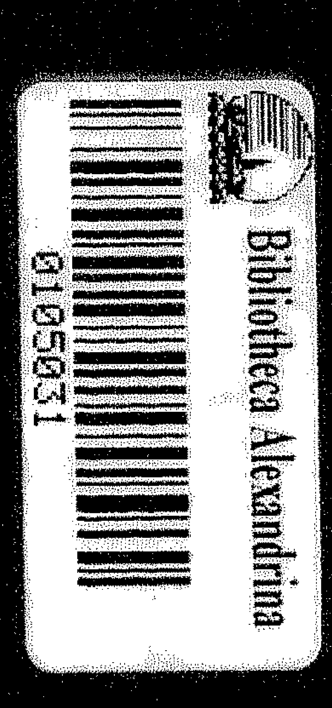
يوسف ميخائيل أسعد

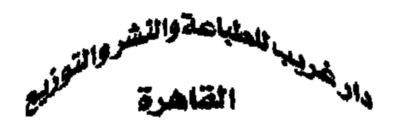
الكذب
وأثره فى الإنسان



دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الكـــذب
وأثره فى الإنسان

يوسف ميخائيل أسعد



الكتـــــــاب : الكذب وأثره فى الإنسان
المـــؤلــــف : أ / يوسف ميخائيل أسعد
تاريخ النشــــر : ١٩٩٨
رقــم الإيــداع : ٧٩٥٠ / ٩٨
الترقـيم الدولى : I S B N 977-215-342-4

الناشـــــــر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطـابـع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

التــوزيـــع : دار غريب ٣٠١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسـويق
والمعـرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

المقدمــــة

عندما يذكر الكذب فى موقف ما من مواقف الحياة، فإن الذهن ينصرف توًا إلى القيم الدينية والأخلاقية، باعتبار أن الكذب شر، وأن الشخص الذى يفوه بالكذب، هو شخص شرير. ونحن بالطبع لا نعترض على ما تقرره القيم الدينية والأخلاقية، بل نضيف الزاوية السيكولوجية إلى الزاوية التقييمية التى تتعلق بالخير والشر.

ولاشك أن النظرة السيكولوجية إلى المسائل الأخلاقية، تعمل على توسيع الأفق، وعلى إصدار الأحكام الأخلاقية بطريقة أكثر شمولاً وعمقًا وتقديرًا لسلوك الإنسان وشخصيته. فكلما كانت الزاوية التى ينظر منها المرء إلى المسائل الأخلاقية أوسع وأرحب، كانت الأحكام التى يصدرها بصددها، على جانب أكبر من الحصافة والدقة.

على أننا فى هذا الكتاب، سوف نتحرى استقلال الفكر الدينى والأخلاقى، وما يتضمنه من معايير سلوكية، فنقتصر على إلقاء الضوء على مفهوم الكذب من زوايا متعددة، أى أننا سوف ننهج منهجًا تقريريًا، وليس منهجًا تقييميًا. وبتعبير آخر فإننا سوف نقفو قَفْو المستكشف للحقائق، والسابر لأغوار هذه الظاهرة السلوكية بطريقة موضوعية خالية من التقييم ،،

يوسف ميخائيل أسعد

فبراير ١٩٩٨

الفصل الأول

معنى الكذب

الزوايا التى يمكن أن ننظر منها إلى الكذب:

إذا سألت أى شخص عن معنى الكذب، فإنه سوف يجيبك بقوله: «إنه الكلام الذى لا يتحرَّى صاحبه الصدق فى القول»، أو يقول لك: «إن الكذب هو مباينة القول للواقع». بيد أن الحقيقة أن معنى الكذب يتسَّع لأكثر من هذا. فعلينا إذن أن نُلقى الضوء على هذا المعنى الفسيح، فنستكشف الجوانب التالية:

أولاً - الشمولية الزمانية: فالكذب لا ينحصر فى عدم مطابقة الكلام للحاضر فحسب، بل يمتد ليشمل الحاضر والماضى والمستقبل. فإذا سألت ابنك وهو جالس إلى مكتبه، زاعمًا أنه يستذكر دروسه، عما يفعل، فقال لك: «إنى أستذكر دروسى»، بينما يكون منهمكًا فى قراءة قصة، فإنه يكون كاذبًا كذبًا آنيًا، يتعلَّق بالحاضر. ولكنك إذا سألته عما إذا كان قد

وصـل إلـى المدرسـة أمس فى المعـيـاد قـبل طابور الصـبـاح، فأجابك بأنه وصل بالفعل إلي المدرسة، قبل أن يَدُق الجرس، بينمـا يكون الواقع أنه وصل إليـهـا بعـد الطابور، فـإنه يكون كاذبًا كذبًا يتعلق بالماضى. وإذا سألته عما إذا كان قد اعتزم على الاشتـراك فى مـسـابقـة المعلومـات العـامـة، التى سـوف تعـقـدهـا الإدارة التـعليـمـيـة فى الأسـبـوع القـادم، فـأجـابك بالإيجاب، مع أنه يكون قد عقد النيَّة على عدم الاشتراك فيها، فإنه يكون بهذا كاذبًا كَذِبًا مستقبليًا.

ثانيًا- الكذب المعـرفي: فـمن كـانوا يقـولون إن الذرات لاتقبل القِسْمة أو الانشطار، كانوا كاذبين عن جهل بالحقيقة، وكـذا من كانوا يعتقـدون أن الأرض مسطَّحة وليست كروية، كـانوا أيضًا كاذبين عن جهل. والكثير من النظريات التى نأخذ بها الآن، سوف تعتبر كذبًا وبهتانًا فى المستقبل.

ثالثًا - الكذب الوجـداني: فـعـدم مطابقـة المشـاعـر الوجـدانيـة، لما يبـديه المرء من سلوك، هو أيضًا كـذب، ولكنه ليس بالضـرورة أن يكون كـذبًا بالكلام، بل قـد يكون بمـلامح الوجه، أو بالتصرفات التى لا تماشى ما يعتمل فى قوام المرء النفسى من عواطف تجاه من يكذب عليهم بعواطفه.

رابعًا- الكذب السـيكولوجي: فـالشـخص المصـاب بالهلوسة Hallucination، فـيـرى أو يسـمـع أو يلمس أو يشم أو

يذوق أشياء لا وجود لها فى الواقع المحسوس، بل يحس تلك الأشياء نتيجة خلل معيَّن أصابه بالمخ، إنما يكون كاذبًا عندما يؤكِّد أن تلك الأشياء التى يُحسها موجودة فى الواقع، مع أنها لا تتعدَّى دخيلته الذاتية.

خامساً - الكذب الاعتقادى: فجميع الخرافات أو المعتقدات الشعبية كالاعتقاد بوجود أشباح فى مكان معيَّن، أو الاعتقاد فى أن رقم ١٣ يجلب النحس، أو فى أن تربية السلاحف بالبيت تجلب الخير، أو أن مقابلة شخص أعور فى الصباح يجلب الشر على من يقابله، وغير ذلك من معتقدات خرافية، إنما هى أكاذيب اعتقادية.

الأسس التى يمكن أن يقوم عليها الكذب:

وفى ضوء هذه الأنواع الخمسة من الكذب التى عرضنا لها، نستطيع أن نحدِّد الأسس التى يقوم عليها الكذب وهى على النحو التالى:

أولاً- عدم مطابقة الكلام للواقع: فالكذب بهذا المعنى، هو المخالفة عن الواقع الموضوعى، أو تباين ما يقوله المرء بإزاء ذلك الواقع عن حقيقته الموضوعية.

ثانيًا - الغرضية: وعدم المطابقة بين الكلام والواقع، يكون لغرض ما، ينحو الشخص الكاذب إلى محاولة تحقيقه أو تثبيت أركانه، والتأكيد عليه.

ثالثًا – الخداع الذاتي: وقد يكون الشخص الكاذب، كاذبًا على نفسه، بأن يخدع نفسه لاشعوريًا. فهو برغم تأكُّده من مطابقة كلامه للواقع، فإنه يكون منخدعًا بطريقة لاشعورية بأنه صادق، وبأن ما يعتقد فى حقيقته، لاتشوبه أى شائبة من الشك. ولاشك أن الغرور يندرج فى إطار الخداع الذاتى، أو كذب المرء على نفسه.

رابعًا – عدم تكامل الشخصية: فثالوث الشخصية المكوَّن من الفكر والعاطفة والإرادة، إذا ما حدث تباعد أو تنافر بين أى ضلع من هذه الأضلاع الثلاثة فى السلوك، فإن ذلك السلوك لا يكون سلوكًا صادقًا، بل يكون سلوكًا كاذبًا.

خامسًا – مظهر السلوك وليس جوهره: فالشخص الذى يتلبَّس بالمظاهر السلوكية التى ليس لها رصيد نفسى لديه، لا يكون صادقًا مع نفسه أو مع غيره. فمن يزعم أنه شجاع ولا يخاف، مع أنه رِعْديد بدخيلته، ويسيطر الخوف على قلبه من أى هجوم أو شبه هجوم عليه، لا يكون صادقًا، بل يكون كاذبًا.

الديناميات السيكولوجية للكذب:

وعلينا بعد هذا أن نستعرض الديناميات السيكولوجية التى تعتمل فى دخيلة الشخص الكاذب، فنجد أنها يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً- دينامية التوافق الاجتماعي: فمن الدوافع البشرية المعتملة فى قوام المرء، أن يتكيَّف للواقع الاجتماعى المحيط به، والمتعامل معه، تمامًا كالدافع إلى التكيف مع الواقع البيئى الطبيعى، فيحاول أن يحمل جسمه على أن يماشيه ويتوافق معه، ولا يتنافر بإزائه. فالإنسان يهفو إلى أن يتصالح دائمًا مع الواقع من حوله، وألا يتعارض أو يتصادم معه. والشخص الذى ينحو إلى الكذب، يرغب فى ملاشاة أى تعارض بينه وبين الآخرين، وأن ينخرط فى التيار الاجتماعى نفسه الذى يسلكونه. فالابن الذى ضربنا مثالاً به، عندما كذب على والده، بأنه لحق بطابور الصباح فى المدرسة، ولم يتأخَّر عنه، كان يرغب فى أن يتجانس سلوكه مع السلوك الذى يرغب والده أن يكون قد سلكه، ومع ما يتمنى له أن ينهج وَفْقه. وقل الشىء نفسه بالنسبة لموقف ذلك الابن عندما سأله أبوه عما إذا كان يستذكر دروسه، بينما كان جالسًا إلى مكتبه لايستذكر دروسه، بل كان منهمكًا فى قراءة قصة. فهو بكذبه فى هذا الموقف، كان يرغب فى ألا يتصادم مع ما يرغب أبوه فى الوقوع عليه، من أنه منهمك فى الاستذكار.

ثانيًا- ديناميـة الدفاع عن النفس: ووَفْق هذه الدينامية، فإن الشخص الكاذب، يكون متخذًا من الكذب، وسيلة يدافع بها عن نفسه. فالابن الذى ذكرناه، يكون فى موقف دفاعى عن

نفسـه، حتى لا يضـربه أبوه إذا قـال الصـدق، وقـرر أنه لا يستـذكـر دروسـه، بل يتسلى بتلك الرواية التى كان يقـرؤها.
وقل الشىء نفسه بإزاء الكثيـر من المواقف التى يكذب فيها بعض الناس، فلا يقررون الحقيقة، تجنبًا لما يمكن أن يترتب على قولهم الصدق من نتائج تؤذيهم، أو تضر بمصالحهم.

ثالثاً – دينامية جَلْب المنافع: فالبائع الذى يكذب عليك بقوله إنه يبيع لك السلعة بخسارة، يكون قصده من قوله الكاذب، هو أن يستدِر منك ربحًا كبيرًا. والمرءوس الذى يمتدح رئيسه مع أنه دائم التشكِّى منه، والنَّعْى عليه، وانتقاده واتهامه بالغباء، ولكنه يكيل له المديح لدى مقابلته له، فإنما يكون ذلك لكى يَرْضَى عنه، ويكتب عنه تقريرًا طيبًا يؤهله للحصول على ترقية، أو لنيل مكافأة تشجيعية، فكذبه يكون بقصد الحصول على فوائد، وجلب منافع، تَدْعم مكانته الوظيفية.

رابعاً– دينامية الغيرة والحسد: فالبنت التى تحس بالغيرة من إحدى زميلاتها لأنها أجمل وأخف ظلاً منها، وأعلى ذكاءً، وأكثر تفوقًا عليها فى دراستها، وأكثر قبولاً فى أنظار من يتعاملون معها أو يخالطونها، فإنها قد تختلق الأكاذيب حول سلوك تلك الزميلة، فتذيع عنها وشايات، أو تختلق حول سلوكها قصصًا غرامية، ليس لها أساس من الصحة. وقد

تستشهد كذبًا بزميلة أخرى كاذبة مثلها، فتؤكدان سويًا أنهما شاهداها فى وضع مريب مع أحد الزملاء، أو تتحلان غير ذلك من أكاذيب، نتيجة ما تشعران به من غيرة وحسد، تجاه تلك الزميلة البريئة من كل ما اختلقاه عنها من أكاذيب.

خامساً- دينامية التشفِّى والانتقام: ولقد تختلق الأكاذيب، تعبيرًا عن التشفِّى والانتقام من عدو، ردًا على الإساءات التى وجهها إلى الشخص الكاذب الذى يعجز عن توجيه الانتقام المباشر إليه، فيتخذ من الأكاذيب سلاحًا انتقاميًا ضد عدوه. فيأخذ فى حياكة مجموعة من الأكاذيب، التى يعتقد أنها تضر بصاحبنا، وتَحُط من سمعته، وتعمل على تلطيخها. من ذلك مثلاً ما يتخذه أحد المرءوسين من مواقف تجاه رئيسه الذى أوقع عليه جزاءً وخصم من راتبه مبلغا من المال، فأراد أن ينتقم منه، ولكنه يعجز عن الانتقام منه مباشرة فيأخذ فى ترويج الشائعات الكاذبة عنه، زاعمًا أنه يأخذ الرشاوى من بعض الزملاء، وأنه أوقع عليه ذلك الجزاء، لأنه لم يسلك ذلك الطريق الذى يُرَضيه، بل تعفف عن تقديم أى رشوة إليه، فما كان منه إلا أن لفَّق له تلك الفَرِيات، زاعمًا أنه أوقع عليه الجزاء لأنه رفض أن يسبح فى تياره الدنىء.

النزعات الفلسفية للكذب:

وعلينا بعد هذا أن نعرض للنزعات الفلسفية، التى تشيع

على ألسنة الناس، ومواقفهم من الكذب، فنجد أن تلك النزعات يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً - النزعة الإطلاقية: والمؤمنون بهذه النزعة، يذهبون إلى القول بأنه لا فرق بين كذبة وأخرى. فالكذب شر فى ذاته، بغض النظر عن النتائج التى يمكن أن تترتب عليه، وبغض النظر أيضاً عن الأضرار التى يمكن أن ينجو منها المرء أو ينجِّى بها غيره، نتيجة التذرع به. فمن واجب المرء فى نظرهم إذن، أن يتلبَّس بالصدق دائمًا، وفى كل موقف، وأن يكون صادقًا باستمرار، وفى كافة الظروف التى تكتنفه، حتى ولو أدى تمسكه بالصدق، إلى أن يلقى حتفه، أو أن يُلْقى أعز الناس لديه حتفهم.

ثانياً - النزعة النسبية: والمؤمنون بهذه النزعة النسبية، يقيمون الاعتبار للمواقف التى يوجد بها المرء. فعليه أن يقيم الوزن للنتائج التى يمكن أن تترتب على قوله الصدق أو الكذب. فإذا كانت النتائج التى تترتَّب على قول الصدق ضارة به أو بغيره، فعليه إذن أن يكذب، ولا يكون الكذب فى هذه الحالة فى رأيهم شرًّا، مادام لا تترتب عليه أذية لأى شخص، أو لا يسبب خسارة مادية لأحد. فكما أن لكل مقام مقالاً، كذا فإن لقول الصدق ولقول الكذب المجال المناسب لكل منهما.

فليس الصدق المُطلق هو الخليق بالاتباع، بل يجب اتباع ما يناسب الموقف والمجال والظروف المحيطة بالمرء.

ثالثاً - النزعة المستقبلية: والمتحمسون لهذه النزعة المستقبلية، لا يزنون القول، من حيث هو صدق أو كذب، فى ضوء الماضى وما حدث خلاله، بل يزِنون القول فى ضوء النتائج، التى يمكن أن تترتب على الإفصاح به، فى نطاق المستقبل القريب وفى المستقبل البعيد على السواء، وما عسى أن تكون عليه النتائج بالنسبة للناس الذين يتعلّق بهم كلامهم. فليس المهم فى أنظار هذه الفئة ذات النزعة المستقبلية، ما حدث أو ما قيل، بل المهم فى أنظارهم، ما يمكن أن يترتّب على الكلام من علاقات وتصرفات ومواقف. فلقد يكون فى قول الكذب منجاة لهم من جرائم يمكن أن تقع، أو خلافات بين الأصدقاء يمكن أن تنشب، أو مضار مادية أو معنوية، يمكن أن تحدث إذا ما قيل الصدق كما حدث بالفعل.

* * *

الفصل الثانى

الكذب فى الطفولة

لماذا يلجأ الأطفال إلى الكذب :

إن من يتعامل مع الأطفال، ويقف على الألوان السلوكية التى ينخرطون فيها، يجد أنهم لا يقولون الصدق فى كثير مما ينطقون به من كلام، وفى كثير جداً من التصرفات التى يأتونها، بل تكون أقوالهم وتصرفاتهم مفعمة بالكذب. ويعود سلوكهم هذا إلى مجموعة من الأسباب التى نستعرضها فيما يلى:

أولاً- طغيان المخيلة على الإدراك الحسى: فمخيلة الأطفال قوية، لدرجة أنها تتغلَّب على ما يتسنى لهم إدراكه بحواسهم الخمس. وحيث إن المخيلة تقوم بتصنيع صور ذهنية تخيُّلية، مستقاة من المدركات الحسية، فإن تلك الصور التخيلية تعمل على الانحراف بالمدركات الحسية التى يستقيها الطفل من الواقع الخارجى عن حقيقتها الموضوعية.

ثانياً- طغيان المخيلة على الذكريات: وعلى النحو نفسه، فإن المخيلة عند الأطفال، تطغى على الذكريات، التى ترسَّبت فى ذاكرتهم، من المدركات الحسية، التى تسنى لهم استقبالها من الواقع الخارجى. فهى تقوم بتصنيع صور ذهنية تخيُّلية، مستفيدة بالذكريات، التى تُعْتبر بمثابة الخامة التى تقوم بتصنيعها. ومن الطبيعى أن يَعْتبر الأطفال تلك الصور الذهنية التى قامت المخيلة بتصنيعها، حقيقة موضوعية لا يُدَانيها أى شك، تماماً كما يعتقدون أيضاً أن الصور الذهنية، التى تم تصنيعها من المدركات الحسية، واقع موضوعى محسوس.

ثالثاً - الرغبات تتغلَّب على الواقع: ومما يجعل المخيلّة قوية وطاغية عند الأطفال، ما يعتمل فى قوامهم من رغبة، فى أن تكون تلك الأخيلة التى توصَّلوا إليها نتيجة قيام المخيلة بتصنيع المدركات الحسية من جهة، وبتصنيع الذكريات من جهة أخرى، حقائق موضوعية، لا يشوبها أى انحراف عن الواقع الموضوعى.

رابعاً- الدفاع عن النفس والانتقام: ومما يساعد على انتشار الكذب بين الأطفال، عجزهم عن الانتقام، من الذين أساءوا إليهم، أو ضربوهم، سواء كانوا من أترابهم من الصغار مثلهم، أم من الكبار. فعجزهم عن الدفاع عن النفس، ورغبتهم

فى الانتقام ورد العدوان، على من اعتدى عليهم، يَدّفع بهم إلى تنشيط مخيلتهم، لكى تصوِّر لهم مواقف ووقائع خيالية، لم تحدث فى الواقع الخارجى. ولكنهم يتذرَّعون بتلك الصور الذهنية، لكى يتسنى لهم الشكوى من غيرهم، الذين يرغبون فى الانتقام منهم. وكثيرًا ما يلفِّق الأطفال لغيرهم اتهامات، ليس لها أى أساس من الواقع، ولكن لها أساس نفسى فى دخائلهم، ويرغبون فى التعبير عنها، للتشفِّى ممن اعتدوا عليهم، والانتقام منهم، ورد العدوان بعدوان مماثل، ولكن بطريقتهم الخيالية الخاصة بهم، والتى تتناسب مع ما فى قدرتهم، على الانتقام من الذين يناصبونهم العداء.

خامساً – جذب الانتباه وإبداء الاهتمام: ومن الدوافع التى تعتمل لدى الأطفال، الرغبة فى أن يحظوا بالاهتمام، الذى يبرهن على حب الكبار لهم. فكلما لاحظ الطفل، أن الكبار لا يُعِيرونه الاهتمام الكافى، أو أنهم غير عابئين بكلامه وتصرفاته، فإنه يعمِد لا شعوريًا إلى اختلاق الأكاذيب، حتى يثير انتباههم إليه، واهتمامهم به. وكلما كانت الأكذوبة التى يختلقها الطفل أكثر إثارة، فإن ما يوجِّهه الكبار إليه يكون أكثر غزارة وتركيزاً. ومن ثمَّ فإنه يحاول جاهدًا، أن تكون أكاذيبه مثيرة للكبار، حتى يستمر فى نَيّل حبهم، وتوجيه انتباههم إليه.

الديناميات اللاشعورية لكذب الأطفال:

وعلينا أن نقوم بعد هذا بإلقاء الضوء على الديناميات النفسية، التى تعتمل فى لاشعور الطفل، والتى تدفع به إلى الكذب، فنجد أن تلك الديناميات، يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً - دينامية اعتبار الذات: فالطفل يكون أكثر التفافًا وتبلورًا بوجدانه حول ذاته، متمنيًا أن يحظى بأكبر قدر من الاهتمام والحب من جانب الآخرين، وبخاصة الوالدين، ولكنه يجد الكبار منصرفين عنه فى الغالب، ولا يُبْدون له الاهتمام الكافى الذى يُشْبع نهمه نحو نيل الحب وتركيز الذهن والعاطفة فيه، فلا يجد أمامه وسيلة تأسر اهتمامهم، سوى تلفيق تلك الأكاذيب، وسردها على مسامعهم، فيحملهم بذلك على أن يركِّزوا انتباههم فيه، والاهتمام بما يقوله. ذلك أن ما يقوله لهم، أو ينقله إليهم من أخبار عادية، لا يثير انتباههم، ولكن ما يحملهم على الاهتمام بكلامه، هو تلك الأكاذيب والتلفيقات الخطيرة، التى يُلَفِّقها لزملائه، أو حتى للكبار مثل المدرسين والأقارب والجيزان.

ثانيًا- دينامية الجيشان الوجدانى: فالوجدان الثائر، الذى يدفع بالكثير من الأطفال إلى الانخراط فى بكاء مرير، يكون بغير سبب موضوعى خارجى، يمكن أن يبرِّر أو يدعو إلى

هياج وجدانهم. ولكنهم يندفعون تلقائيًا فى ذلك الجيشان الوجدانى، فينفجرون فى البكاء. ومن الطبيعى أن يسألهم الوالدان، عما يؤلمهم أو يحزنهم أو يغيظهم، فلا يجدون أسباباً موضوعية خارجية، تعمل عملها فى وجدانهم، يتعلَّلون بها، حتى يثور بهذه الدرجة من الجيشان، فلا يجدون سوى تلك الأكاذيب التى يختلقونها اختلاقًا فوريًا وارتجاليًا، حتى يبرروا انفجارهم المرير فى البكاء المصحوب بالدموع الغزيرة. وقد تكون تلك الأكاذيب منصبَّة على محاولات جنسية يتخيل الطفل أنها قد صدرت عن المدرس، أو عن ابن الجيران، فيهتاج الوالدان ويصدِّقان الطفل فيما يرويه على سمعهما. وقد ينحو الطفل إلى الناحية الصحية، فيزعم أنه يحس بمغص شديد فى بطنه يسبب له الألم الذى لا يُحتمل، مما يحمل الوالدين، على الجرى به إلى الطبيب. المهم أنه يحاول جذب انتباه والديه إليه، حتى يستأثر بعطفهم عليه، واهتمامهم به.

ثالثاً– دينامية الشعور بالوحدة: فالطفل الوحيد بصفة خاصة، كثيرًا ما يستشعر القلق بسبب الوحدة والعزلة عن رفقاء اللعب، والحرمان من الصُحبة. فهو لا يجد فى الوالدين المصدر الكافى لإشباع ما لديه من حاجة إلى اللعب والسَمَر مع الأقران من الأطفال. فهو إما أن يبحث عن رفقاء لعب يَقْضى الوقت معهم، وإما أن ينخرط فى أخيلة تُشبع نهمه إلى

اللعب واللهو، فيلعب مع أصدقاء وهميين يختلقهم بمخيلته، وقد يتشاجر معهم، ويُشبِّعهم ضربًا ولطمًا، ويكون أولئك الأصدقاء الوهميون مجسَّدين فى الكراسى أو المناضد، فيحل الجماد محل الإنسان. وقد يطالب والده بأن يعاقب الطفل الوهمى الذى آذاه، ويشير إلى الكرسى، حتى يقوم بضربه والانتقام له منه.

رابعًا – ديناميــة أحـلام اليقظة: ومن الديناميات التى تعتمل لدى الطفل، الدينامية التى تحمله على أن يسرَّح الطرف فى أحلام يقظة، يرى خلالها أحداثًا ومواقف وعلاقات بينه وبين أشخاص حقيقيين، أو أشخاصًا وهميين. ولكنه يخلط الخيال بالواقع، فيعتقد أن ما شاهده بخياله من أحداث ووقائع، قد وقع بالفعل. وهو يؤكد فى أحاديثه لمن حوله، بأن ما يقوله لهم خالٍ تمامًا من الكذب، فيكون بذلك كاذبًا بإزاء ما يقوله لأنه لم يحدث بالفعل، ولكنه يكون صادقًا فعلاً بإزاء ما يعتقده، ويَذْكره عن يقين وثقة، على أنه صحيح وقد حدث بالفعل.

خامسًا– دينامية أحلام النوم: وإلى جانب ما يختلقه الطفل من أكاذيب وهمية فى أثناء أحلام يقظته، تتعلق بالمواقف والأحداث التى ليس لها أى رصيد من الواقع، فهناك أيضًا أحلام النوم وما يراه خلالها من مواقف غير حقيقية.

فهو يَصُول ويَجُول لاشعوريًا بأكثر حرية فى أثنائها، فيشتعل لاشعوره، بما يساعده على التفريغ الانفعالى للمكبوتات والعراقيل والعقبات التى تَحُول بينه وبين السيطرة والعنف، بإزاء من هم أقوى منه. فما يعانى منه فى يقظته من مشاكل وصعاب، وما ينشب من معارك بينه وبين غيره من أطفال، وما يُوَقِّعه عليه والده والمدرسون من عقوبات، يجد له متنفسًا فى أثناء النوم من خلال الأحلام الصريحة والرمزية التى يرى نفسه خلالها القوى الجبار، الذى يستطيع أن يبطش بكل أولئك الذين أوقعوا عليه الأذى فى يقظته. إذن فالكذب الخيالى الذى ينخرط فيه الطفل فى أثناء نومه، والذى يُتَرجَم فى هيئة أحلام تنفيسية، يُعْتَبر من وسائل العلاج الطبيعى، الذى يعالج الطفل بواسطته نفسه بنفسه، فيسترد نشاطه النفسى، ويستيقظ من نومه صافى النفس، مرتاحَ البال، غير مشوب بأى منغِّصات. ذلك أن عملية التفريغ الانفعالى التى تضطلع بها أحلام النوم، تكفل له معاودة نشاطه من جديد، فتزول من أمام عينيه الغُمَّة، التى كانت تعمل على إصابة حياته اليقظانة بالكَدَر والتعاسة.

مواقف المربين من الطفل الكذّاب:

وبعد أن قمنا باستعراض هذه الديناميات النفسية

الخمس، التى تعتمل فى لاشعور الطفل، والتى تدفع به إلى الكذب، فإن علينا أن نتفحَّص المواقف التربوية التى تنشأ فيما بين الكبار والطفل، لدى اكتشاف ما ينخرط فيه من كذب، فنجد أن تلك المواقف يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً – عدم فهم طبيعة الطفولة: فالغالبية العظمى من المربين، ينحازون للأخلاق، دون أن يقيموا أى اعتبار للخصائص النفسية لمرحلة الطفولة. فهم يعتقدون أن الطفل الذى يكذب، هو طفل شرير، وأنه سوف يظل كذَّابًا وشريرًا، حتى بعد أن يَشِب عن الطَّوْق. فـفكرتهم عنه وتقديرهم له يكونان فى الحضيض، وكلما اكتشفوا موقفًا يكون فيه غير صادق، فإنهم يتكدَّرون، ويخيب ظنهم فيه أكثر فأكثر.

ثانياً– الشك فى طرائقهم التربوية: والكثير من المربين الذين يكتشفون ما ينحو إليه الطفل من كذب، يلومون أنفسهم، ويتساءلون بينهم وبين أنفسهم، عما إذا كانوا قد قدَّموا مثالاً سيِّئًا أمامه، أم أنهم يكذبون فكَذَب مثلهم، أو أنه قد خالط أطفالاً آخرين منحرفين أخلاقيًا، فأصابته عدوى الكذب، أم أن فطرته رديئة وبه مَسّ من الشيطان، حمله على ألا يتحرى الحقيقة فيما يفوه به من كلام؟ إنهم يجيلون إذن فكرهم فى العوامل الشريرة، التى أثَّرت فى ذلك الطفل، وأحالته إلى شخص كذَّاب، لا يتحرَّى الصدق فى كلامه.

ثالثاً- معاقبة الطفل بالضرب والكى والحبس: ولقد يأخذ الغيظ بالمربى كل مأخذ، فينهال بالضرب على الطفل الذى يكتشف أنه قد كذب عليه فى موقف ما من المواقف. ولقد يعمِد بعض الأباء إلى كَىِّ الطفل بالنار، أو إلى سجنه فى حجرة وَحْده لمدة طويلة، وما يصاحب ذلك من تعنيف وتخويف وتهديد بالطرد من البيت، إذا ما لم يُقْلِع عن الكذب.

* * *

الفصل الثالث

الكذب فى المراهقة

تباين الكذب فى المراهقة عنه فى الطفولة:

يختلف الكذب فى المراهقة عنه فى الطفولة من عدة نواحٍ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى:

أولاً- التمييز بين الواقع والخيال: فبينما نجد أن الطفل يَمْزج فيما بين الواقع والخيال، بحيث يكون الكذب الذى يصدر عنه، نتيجة عدم التمييز بدقة بينهما، بل يُحْسب الخيال ضمن الواقع، فأحلام يقظة الطفل التى يركِّب خلالها صورًا ذهنية، عبارة عن مزيج أو مركَّب يجمع بين الواقع والخيال، وهو يعتبرها حقيقة واقعة. وبتعبير آخر فإن الطفولة يكون اللاشعور خلالها أكثر اعتمالاً وسيطرة من الشعور حتى والطفل يقظان. أما فى المراهقة، فإن الشعور يتعادل مع اللاشعور، ومن ثمَّ فإن المراهق أو المراهقة، يميِّزان بوضوح

فيما بين الواقع والخيال. ويترتّب على هذا، أن ما يَصْدر عنهما من كذب، يكون متميّزًا عما يصدر عنهما من صدق. فالمراهق والمراهقة يُدْركان جيدًا أنهما يكذبان، إذا لم يعبّرا عن الواقع كما حدث فى الماضى، أو كما يحدث فى الحاضر، أو كما سوف يحدث فى المستقبل.

ثانيًا- الكذب وسيلة لتأكيد الذات: وفى المراهقة، يحس المراهق أو المراهقة، بأن تخبئة الحقيقة عن الكبار، يُعْتبر من العبقرية التى يتمتّعان بها. فكما أنهما يحرصان فى لعبهما على إخفاء شىء - منديل مثلاً - ويطلبان ممن يلعبان معهما البحث عنه، وكلما كانا أكثر مهارة فى تخبئة المنديل، فيحيّران من يلعب معهما فى البحث عنه دون جدوى، كذا فإنهما يَعْتبران أن الكذب، إنما هو إخفاء للحقيقة عن أعين الكبار، فيدوّخانهم فى البحث عن الحقيقة دون جدوى. وبذا تتأكد قوتهما، وقَهْرهما لذكاء الكبار، كما أنهما بهذا يؤكّدان أنهما واسَعىْ الحيلة، وقادرَيْن على إيقاع الهزيمة بالكبار من حولهم.

ثالثًا - التحرر من مراقبة الكبار: والكذب فى حياة المراهق والمراهقة، بمثابة الخروج على طاعة الكبار، والتحرر من رِبْقتهم. وبتعبير آخر فإنهما يخرجان عن الدائرة التى يرغب الكبار حصرهما فى إطارها، فيكون لهما عالمهما

الخاص بهما، بينما يكون للكبار عالمهم الخاص بهم. فما يماشى مزاجهما، لا يماشى أمزجة الكبار، وما يتذوقانه، يتباين تباينًا جوهريًا عن مذاقات الكبار. ومن ثَمَّ فإنهما يُخْفيان عن الكبار أشياء وأفكارًا وقيمًا وخططًا خاصة بهما، مباينة تمامًا للأشياء والأفكار والقيم والخطط التى يضعها الكبار ويأخذون بها أنفسهم.

رابعًا – تصفية الحسابات: والكذب فى حياة المراهق والمراهقة، بمثابة تصفية حسابات مع الكبار، الذين كانوا يرغبون فى أن يتطابق سلوكهما مع سلوكهم، وألا يخرجا قَيْدَ أنْملة عما يترسَّموه لهما، ويحددون ما ينبغى عليهما أن يسلكا وَفْقه، وما ينبغى عليهما أن يَعْزفا عنه، ويتحاشانه. وبينما كان الكبار يوقِّعون عليهما الضرب المبَرِّح فى الطفولة إذا ما خالفا عن ذلك، فإنهما فى المراهقة يتحدَّيان جميع الإجراءات التى يمكن أن تخطر على بال الكبار، ومن بينها الضرب. فهما يمكن أن يَرُدَّا على العنف والعنف، بما يؤلم الكبار إيلامًا مروِّعا، ومن بين ما يردَّان به، هو شق عصا الطاعة عليهم، وتحديهم، بحيث قد ينتهى العصيان والتحدى، إلى مغادرة المنزل بغير رجعة، والانطلاق فى آفاق الدنيا الواسعة. ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا إن نسبة كبيرة من المتشردين فى الشوارع،

هم من المراهقين الذين تحدُّوا سلطة الكبار، وغادروا أسرهم لا يلْوون على شيء، ولم يخططوا لمستقبلهم من قريب أو من بعيد.

خامساً- التربُّص بالكبار وإحراجهم: ومن التوجُّهات التى قد ينتحى إليها المراهق والمراهقة، التربُّص بالوالدين والمعلمين والكبار بعامة. فكلما وجَّهوا إليهما النقد أو أسدوا لهما النصيحة، فإنهما يأخذان فى معايرتهم، والإعلان عن أخطائهم ومزالقهم التى تردُّوا فيها. فبينما كانا وهما بعد طفلين يعملان ألف حساب للكبير، وعدم الاجتراء على نقده، فإنهما فى المراهقة، يكونان على استعداد لكشف النقاب عن العيوب والمآخذ والانحرافات التى تردَّى فيها الوالدان، أو انزلق إليها المعلمون والمعلمات. ولعلهما يكونان قد احتفظا ببعض الذكريات الخاصة بهم فى الطفولة، لكى ينتهزا الوقت فى المراهقة للكشف عنها، والتهديد بإعلانها على الملأ. وبالطبع فإن الكبير يخشى من افتضاح ما كان مخبوءاً بعيداً عن الأنظار، فيسكت وينسحب، ويتوقَّف عن تقديم أى توجيه للمراهق والمراهقة، خوفًا من أن يفتضح ما كان حريصًا على تخبئته، وعدم كشف النقاب عنه.

الديناميات النفسية فى كذب المراهقين:

وعلينا أن نقوم بعد هذا باستعراض الديناميات النفسية

التى تعتمل فى قوام المراهق والمراهقة، فيما يتعلق بانتحائهما إلى الكذب، وعدم تَحَرِّى الحقيقة فى كلامهما، فنجد أن تلك الديناميات النفسية، يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً- دينامية القوة: فبعد أن ينخرط الطفل والطفلة فى المراهقة، أو بعد أن يبلغا العاشرة، فإنهما يُحِسبان بأنهما قد استحوذا على قوة، لم تكن مُقَيَّضة لهما فى الطفولة. وهما يرغبان فى تقليب الواقع النفسى الذى يُحِسان به على أوجهه، وأن يستشعراه، بفضل ما أحرزاه من نمو جسمى وعقلى ووجدانى واجتماعى، وأن يمارسا تلك القوة الجديدة التى قُيِّضت لهما، وأن يختبراها، فى مواقف عملية فى مواجهة الكبار. فلعلهما يجدان أن مشاعرهما بالقوة فى محلها، وأنهما ليسا واهمين. ولا يكون ثمة سبيل إلى مثل هذا التجريب، سوى الوالدين كنقطة بداية لعملية التجريب هذه. فهما يجرِّبان قوتهما مع الأم أولاً، ثم مع الأب ثانيًا، وذلك بتحدى قوتهما وسلطتهما. وفى الوقت نفسه يكون هذا التجريب، بمثابة تدريب لهما على أن يتوسَّعا فى مجال تجربة ما فى مُكْنتهما من قوة، مع أناس آخرين كالمعلمين وغيرهم. ولكن قد ينهزما فى هذا الواقع الجديد، الذى يعمدان إلى تجريته، وذلك بأن يقاومهما الوالدان والمعلمون، مما قد يضربهما

بالخذلان والضعف فى مستقبل حياتهما، ويكون الخوف من الكبار بعامة، قد سيطر عليهما سيطرة تامة، وأسرهما تحت لوائه.

ثانيًا- ديناميكية التخلُّص من نقاط الضعف التى عانا منها فى الطفولة: فالواقع أن المراهق والمراهقة، يحسَّان بأن ما تخاذلا بإزائه فى الطفولة، ما يزال يعشِّش فى وجدانهما، ويهيمن على عقلهما. ولذا فإنهما يندفعان نحو التخلُّص من تلك الركامات النفسية، التى ما تزال تؤرقهما. فعلى الرغم من شعورهما بأنهما قد انخرطا فى مرحلة عمرية جديدة تتَّسم بالقوة، فإن شبح الضعف ما يزال يطاردهما، ويؤرِّقهما فى النوم واليقظة على السواء. فهما فى مرحلة بَيْنية تحتل مكانها بين ضعف الطفولة وقوة المراهقة التى يتحسَّسانها. ولعل المشكلات التى يثيرانها مع الكبار فى هذا المرحلة العمرية، ترجع إلى تلك المحاولات التى يبذلانها، للتخلص من تلك الركامات النفسية التى ماتزال تَقبع بدخيلتيهما. وهما فى هذه الحالة يقارنان بين الصدق مع النفس، وبين الكذب عليها. فهل يغمضان أعينهما عن تلك الركامات، أم يصارحا نفسيهما بالحقيقة العارية من كل تزويق وتخفيف من حدة تلك الركامات النفسية التى تؤرقهما. وبتعبير آخر، فإنهما لابد أن يختارا موقفًا من موقفين: إما الموقف الصريح مع الواقع، وإما الموقف المعتمل فى قوامهما من مشاعر وجدانية، تهفو إلى

الارتفاع عن مستوى ذلك الواقع، إلى مستوى ما يرغبان فى تحقيقه، أو ما كان يؤمّلان فى تحقيقه فى الماضى، أى فى مرحلة الطفولة. فإذا ما غضًا النظر عن الواقع، فإنهما يكونان كاذبين، وقد تسلّقا سُلّم الخيال والكذب على الذات. أما إذا التزما بالواقع، فإنهما برغم اتسامهما بالصدق مع النفس، فإنهما يستشعران شقاء الحياة، ويصطدمان بالواقع المرير.

ثالثاً- دينامية النقد الذاتى: وفى هذه المرحلة العمرية، يركّز المراهق والمرهقة طاقتهما فى توجيه النقد إلى ما ضربا فى إثره خلال الطفولة من جهة، وفى هذه المرحلة العمرية التى ينخرطان فيها من جهة أخرى. فالمراهق والمراهقة دائبان على توجيه النقد إلى ما صدر عنهما من كلام أو تصرفات، فبالإضافة إلى ما يتلقياه من نقد يوجّهه إليهما الآخرون، سواء كانوا زملاء لهم، أم كانوا الكبار من حولهم المسئولين عن توجيه مسار حياتهما، وتربيتهما. والواقع أن النقد الذاتى فى المراهقة، قد يكون شديداً لدرجة أنه قد يُشَكّل عائقًا نفسيًا أمام القدرة على التخلص من الخَوَر النفسى، والتقدم حثيثًا إلى الأمام بثقة ونجاح. فالنقد الذاتى إذا ما زادت قوته وإلحافه على المراهق والمراهقة، فإنه يكون عندئذ عامل إعاقة عن التقدم فى رَكْب الحياة، ويكون عامل تثبيط للهمة. والضرب باليأس والخمول. ومن أكثر المواقف التى يوجّه فيها

المراهق والمراهقة نقدهما إلى نفسيهما، ما صدر عنهما من كلام مَشُوب بالكذب. ولكنهما يَتَّخذان من هذا النقد نقطة انطلاق، لعمل موازنات بين المواقف التى كانا صادقين فيها، والمواقف التى كانا كاذبين فيها.

رابعًا – دينامية التفاؤل والتشاؤم بإزاء المستقبل: والتفاؤل عند المراهق والمراهقة، يمكن أن يندرج فى إطار الكذب. ذلك أن تفاؤلهما، يكون تفاؤلاً رومانسيًا غير قائم على أسس واقعية. فهما يَتَّخذان من التفاؤل موقفًا غيبيًا، فيعتقدان أن معجزة يمكن أن تحدث لهما، فتعمل على ارتفاعهما إلى أعلى عليِّين. فيكون التفاؤل كذبًا على الذات. أما التشاؤم فإنه يصيبهما حتى إذا ما حَقَّقا بعض النجاح، فيكون التشاؤم فى هذه الحالة التى نجحا فيها، عبارة عن كذب على الواقع. فمن الملاحظ أن الكثير من المراهقين إذا ما حَقَّقا النجاح فى الدراسة أو فى غيرها، من مجالات الحياة، فإنهما ينخرطان فى مشاعر متشائمة من المستقبل، برغم ما حققاه من نجاح. فيكونان بذلك كاذبين على نفسيهما، لأنهما ينكران النجاح الواقعى الذى حَقَّقاه، ولكنهما يتشاءمان بإزاء المستقبل، ولا يستبشران بنجاح الحاضر، حتى يَسْبرا المستقبل بنجاح مماثل.

خامسًا– دينامية إلقاء المسئولية على الغير: وعلى الرغم من أن المراهق والمراهقة يكونان هما السبب فيما ثار حولهما

من مشاكل، أو فيما اعترض طريق حياتهما من صِعاب، فإنهما ينتحيان إلى البحث عن شماعة، يعلِّقان عليها الصعاب والمشاكل التى تواجههما. وتتمثل أكثر الشماعات شيوعًا فى حياة المراهقين والمراهقات، فى الوالدين والمدرسين والمدرسات والمناهج الدراسية ونظام التعليم وتقاليد المجتمع. فهم يكذبون على النفس بأن يُكيلوا الذم للمجتمع، وللظروف التى ليس لهم حيلة بإزائها، وبذا فإنهم يدفعون عن أنفسهم أى تقصير أو تراخٍ يمكن أن يُتَّهموا به.

وعلينا فى نهاية المطاف أن نشير إلى دور التربية فى توجيه المراهقين والمراهقات إلى الالتزام بالصدق فى القول والعمل، وأن يتخلصوا من الميول التى تدفع بهم إلى الكذب بالكلام والسلوك العملى فنجد أن هذا الدور يتخلَّص فى ضرورة دَعْم الصداقة بين الكبار من جهة، وبين المراهقين والمراهقات من جهة أخرى. ومن حسن الحظ أن لدى المراهقين والمراهقات الاستعداد الكامل لإقامة جسور من الصداقة بينهم وبين الكبار، ولكن الواقع أن الكبار - سواء كانوا آباء وأمهات أم معلمين ومعلمات - يستخدمون العنف والعصبية كوسيلة تربوية فى التعامل مع المراهقين والمراهقات. ومن ثمَّ، فإن العلاقة بين الطرفين تتَّسم بالتوتر. ولكن إذا ما غيَّر الكبار موقفهم من المراهقين والمراهقات،

عندئذ يمكن أن يلتزموا بالصدق فى القول والعمل. ولقد شاهدنا كيف أن انتحاء المراهقين والمراهقات إلى الكذب بأشكاله المختلفة، يَنْبع فى الواقع من عدم هيمنة روح الصداقة بينهم وبين الكبار.

* * *

الفصل الرابع

الكذب فى الشباب

خصائص الكذب عند الشباب:

يتصف الكذب فى مرحلة الشباب بمجموعة من الخصائص التى نستطيع تقديمها فيما يلى:

أولاً- ارتباط الكذب بالواقع: على الرغم من أن الشاب والشابة يَصْدُران فى سلوكهما، عما يعتمل فى قوامها من وجدانات من جهة، وعما تتطلبه الوقائع الخارجية من مقتضيات ومطالب من جهة أخرى، فإن كفة الواقع الخارجى تتغلَّب لديهما على العوامل النفسية الداخلية. وبتعبير آخر فإن الشاب والشابة يُرَجِّحان كفة الأحداث ومجريات الأمور، على كفة العواطف والانفعالات، بل إنهما يجعلان من تلك العواطف والانفعالات، مجرد أدوات لتحقيق أهدافهم الواقعية المختلفة. ومعنى هذا أن الكذب الذى ينتحى إليه الشاب أو الشابة، إما

أن يكون لجَنْى فـوائد مـعـيَّنة، وإما للتخلُّص من مواقف غير مواتية، أو لذَبِّ أضرار يُحتمل أن تلحق بهما، أو تصيبهما إذا تحرَّيا الصدق فى القول أو التصرف.

ثانياً - لىُّ عنق الحاضر: فالشاب والشابة يرغبان فى أن يطوِّعا الحاضر لمصلحتهما، ولملاشاة العقبات من طريقهما، وتذليل الصعاب التى تعترضهما، وتعطُّل نجاح مقاصدهما. ومن ثمَّ فإنهما يتذرَّعان بالكذب، إما بتغيير الحقائق، وإما بالإضافة إليها أو الانتقاص منها، حتى تصير مناسبة لفتح المغاليق الموصَدة أمامهما. وهما يستعينان بالكذب بإزاء وقائع الحاضر، عندما يجدان أن انتحاءهما إلى الصدق، يزيد الأمور صعوبة وتعقيداً، ويعمل على استحكام سد الطريق أمامهما.

ثالثاً- تطويع المستقبل: والواقع أن الشباب يعيشون فى نطاق المستقبل، أكثر من ارتباطهم بالحاضر والماضى. فهم يرغبون فى تمهيد الطريق أمامهم، حتى يتسنى لهم تحقيق أهدافهم، وتلبية مطالبهم، والحصول على مُبْتغاهم، سواء فى المستقبل القريب، أم فى المستقبل البعيد. من هنا فإنهم فى تمهيدهم الطريق المستقبلى، يمكن أن يتلحَّفوا بالكثير من الأكاذيب. من ذلك مثلاً، عدم مطابقة حماسهم المستقبلى، لواقعهم الحاضر، ولما استطاعوا أن يحرزوه من إنجاز. ناهيك عن عدم مطابقة أخيلتهم المستقبلية، لما فى جُعْبتهم من

استعدادات وقدرات ومواهب. ومن ذلك أيضًا انتحاء البعض منهم، إلى التزوير فى المستندات أو المؤهلات، أو شهادات الخبرة، ومنهم من ينحو إلى تقديم الرشاوى، أو الاستعانة بالوساطات، حتى يتم تعيينهم فى الوظائف التى يهفون إليها. ومنهم من يتحايل على الأساتذة واضعى الامتحانات، حتى يتسنى لهم الوقوف على الأسئلة قبل موعد الامتحان، إلى غير ذلك من وسائل غير مشروعة تندرج فى نطاق الكذب، باعتبار أن الكذب هو عدم مطابقة الواقع مع الوسائل المستخدمة.

رابعًا- الانتحاء إلى توظيف الصدق والكذب: والشباب ينتحون إلى توقُّع النتائج التى يحتمل أن تترتَّب على قول الصدق أو قول الكذب. فليس المهم فى نظر الغالبية العظمى من الشباب أن يكون الكلام الذى يقولونه مطابقًا لما حدث، أو لما يحدث، أو لما سيحدث، بل المهم فى نظرهم، هو ما يُتَوقع أن يترتَّب على ما يقال من نتائج. فالنتائج التى تكون أغزر وأنفع، هى الخليقة بالاهتمام، وليس المهم نوعية الكلام الذى يقال. وبتعبير آخر، فإن البرجماسية، هى العقيدة السائدة بين الشباب. ويستثنى منهم نسبة قليلة، تعتقد فى إطلاقية الكلام، إذ إنهم يعتقدون أن الكذب مهما كانت نتائجه مفيدة، هو شر، وأن الصدق خير مهما كانت نتائجه مفعمة بالأضرار، فيجب أن يُلْتزم به فى كل وقت وفى كل موقف، وفى كل مكان.

خامساً- الكذب بمعنى اللباقة: ومن خصائص الكذب عند الشباب، الانتحاء إلى الربط فيما بين الكذب واللباقة، لدرجة التطابق تقريبًا. فلفظ اللباقة، هو لفظ أخف وقعًا على الأذن من لفظ الكذب. فإذا ما وصف أحد الأشخاص بأنه شخص لَبِق، فإن هذا يعنى أنه يجيد الكذب، فيخرج من المواقف الحرجة بأفضل النتائج الممكنة له ولغيره. وبتعبير آخر فإن الشخص اللبق أو الكذاب، هو الشخص الذى يستوعب الموقف بجميع أطرافه، ويتصرَّف بالقول والعمل فى ضوء تقييمه له بدقة، والتوصُّل إلى أفضل ما يمكن التوصُّل إليه، بفضل ما يتمتع به من ذكاء وقدرة على تغليف الباطل بالحق، وستر عيوب الكلام والتصرف، بالأساليب اللولبية، وبالمهارات اللفظية والموقفية.

الديناميات السيكلوجية للكذب عند الشباب:

وبعد أن قدمنا هذه الخصائص الخمس للكذب الذى يتَّصف به الشباب بصفة عامة، فإن علينا أن نقدِّم الديناميات السيكولوجية، التى تعتمل فى أوصال الشباب، والتى تدفعهم إلى الكذب، فنجد أن تلك الديناميات، يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً- دينامية التوافق الاجتماعى: فأهم ما يَهُم الشباب،

هو ألا يتصادموا مع الواقع الاجتماعى من حولهم، بل أن يظلوا فى حالة توافق معه، وأن ينجحوا فى علاقاتهم الاجتماعية إلى أبعد مدى ممكن. ومن هنا، فإنهم يستعينون بالوسائل التى تحقّق لهم ذلك التوافق، بغض النظر عن نوعها. المهم هو ما يمكن أن يحصلوا عليه من أفضل النتائج، عن طريق أية وسيلة ممكنة.

ثانيًا– دينامية الشللية: وبغض النظر عما إذا كان الكلام صادقًا أم كاذبًا، فإن المُهم أن يحظى الشباب بتأييد أكبر عدد من الأصدقاء. ومن هنا فإن الشباب ينخرطون فى شلل، حتى يكون صوتهم عاليًا ومسموعًا، وأن يكونوا أصحاب حَوْل وطَوْل، فما يقوله الواحد منهم ويحظى بتأييد الشلة التى ينتمى إليها، فإنه يكون عندئذ صادقًا. فمعيار الصدق، لا يتعلّق بالكلام الذى يقال، من حيث مطابقته للواقع الذى حدث أو يحدث أو سيحدث، بل معياره، هو مدى التأييد الذى يحرزه الشاب من الشلة التى ينتمى إليها.

ومن الطبيعى أن تكون الشلل الشبابية متعارضة أحيانًا بعضها مع بعض، بينما تكون فى أحيان أخرى مؤيدة بعضها لبعض. فكلما كان التأييد من الشلل الأخرى أكثر وأقوى، فإن درجة الصدق بإزاء ما يقال تكون أعلى. ومعنى هذا أنه لا يوجد مكان للإطلاقية بإزاء موضوع الصدق والكذب، بل إن

التأييد الجمعى، وحماس الجمهرة لما يقال، هو الفيصل بإزاء الحكم على الكلام، بأنه صدق أم كذب. فمادامت الشلة أو الجمهرة فى صف المتكلم، أو صاحب الموقف، فإنه يكون إذن صادقًا مائة فى المائة. وبالعكس فإن الشلة أو الجمهرة إذا ما اعترضت على ما يقال، فإنه يكون كلامًا كاذبًا، وليس له أساس من الصحة بأى حال من الأحوال.

ثالثًا- الدينامية الجنسية: فالشباب يتَّصفون بوجه عام، بالميل إلى الجنس المقابل لجنسهم. ومن ثَمَّ فإن هناك معيارًا آخر، يحدِّد ما إذا كان الكلام الذى يفوه به المرء صادقًا أم كاذبًا. هذا المعيار هو المعيار الجنسى. فما يوافق عليه أفراد الجنس المقابل من الكلام الذى يقال، يكون، إذن كلامًا صادقًا، غير مَشُوب بالكذب بأى حال من الأحوال. أما فى حالة رفض الجنس المقابل لجنس المرء الكلام الذى يقوله، فإنه يكون إذن كلامًا كاذبًا. وكلما كانت المرأة أكثر تأثيرًا فى أفراد الجنس المقابل، فإنها تكون أكثر صدقًا فيما تقوله. وكذا فإن الشاب الذى يكون أكثر تأثيرًا فى فئة الإناث، فإن كلامه يكون إذن كلامًا صادقًا بلا أدنى جدال.

رابعًا- دينامية التشكك فى كلام الكبار: فالواقع أن مرحلة الشباب، هى مرحلة الثورة على جيل الكبار، سواء كانوا آباء أم أمهات أم معلمين أم معلمات. وبتعبير آخر فإن ما

يَصْدر عن الشباب من كلام ومواقف، يكون هو الصدق بعَيْنه. وعلى العكس من هذا فإن الكلام والمواقف التى تصدر عن الكبار، هى الكذب بعَيْنه. ولكن قد لا يعبِّر الشباب للكبار عن تشككهم فيما يقولونه، بل قد يلزمون الصمت والتحفُّظ، والتوقُّف عن إصدار الأحكام على ما يقال أمامهم. ولكنهم إذا ما اجتمعوا بعضهم مع بعض، فإنهم يتصارحون، ويحكمون على كلام الكبار ومواقفهم، بأنها زائفة وكاذبة من أساسها.

خامساً - عدم التعويل على الكلام بل على العمل:

فلسان حال الشباب يقول: «قل ما تشاء، فليس الحكم على الكلام، بل على العمل». ذلك أن الحكم على السلوك بأنه سلوك صادق أم سلوك كاذب، لا يقوم على أساس الحكم على الكلام، بل على أساس الحكم على الفاعلية الشخصية فى الحياة. فمهما قلت من كلام صادق دون أن يكون له مضمون عملى، فكأنك لم تقل شيئًا. أما الحكم بالصدق أو بالكذب، فإنه يَنْصب على النتائج السلوكية، التى تتبدَّى فى واقع الحياة. وفى العلاقات الاجتماعية، والتأثير فى الأشياء، وفى ضوء مدى ذلك التأثير، ومدى ما يحمله من نتائج مفيدة أو ضارة.

صدى توجُّهات الشباب فى مواقف الكبار:

وبعد أن قدمنا هذه الديناميات الخمس التى تعتمل فى

شخصيات الشباب بإزاء موقفهم من الصدق والكذب، فإننا نتناول صدى توجهات الشباب بإزاء الصدق والكذب فى تقديرات الكبار ومواقفهم منها. فنجد أن هذا الصدى، يمكن أن يتحدَّد على النحو التالى:

أولاً- سُخْط الكبار: فالواقع أن الكبار، وبخاصة المحافظين منهم، ينظرون إلى توجهات الشباب بإزاء الصدق والكذب، بنظرة كلها ارتياب وسخط. فهم فى غالبيتهم، يَقْصرون مفهوم الصدق والكذب على الكلام الذى يقال أو يكتب، ولا يتوسَّعون بمفهومه فيشمل التصرفات والمواقف. ناهيك عن أنهم يتلبَّسون بالنظرة الإطلاقية إلى الصدق والكذب. فليست هناك فى رأيهم حالات وُسْطى، فى ضوء النتائج التى تتأتى عن الكلام الذى يقال أو يكتب. فهناك علاقة تناقض فيما بين الصدق والكذب، ولا توجد حالات وسطى بينهما، كما أن الحكم على الكلام بأنه صدق أو كذب، لا يكون فى ضوء النتائج، بل يكون فى ضوء العلاقة المنطقية بين الكلام نفسه وبين الواقع الذى حدث ويحدث وسوف يحدث.

ثانياً- تحاشى التصادم مع الشباب: ولكن الكبار يتحاشون التصادم مع الشباب، وذلك لأنهم يعلمون جيداً أن الشباب أقوى منهم، وأن المستقبل لهم وليس للكبار. ولقد يتذكَّرون أيام كانوا شبابًا، ويثورون على الكبار، فيعذرون

الشباب فيما يتخذونه من مواقف تتسم بالثورية، وتتعلق بنتائج السلوك، وليس بوسائلة الكلامية أو الأدائية.

ثالثًا- محاولة وقف الشباب عن الاستمرار فى المغالاة والتطرُّف: فالكبار يستخدمون كافة الوسائل الممكنة، لوقف الشباب عن التمادى فى التطرف، وتنبيههم إلى ضرورة الإفادة من خبراتهم، بل ومن خبرات الأجيال السابقة، وذلك لأن جيل الشباب هو الامتداد الطبيعى لجيلهم وللأجيال السابقة جميعًا. بيد أن الشباب ينظرون بصفة عامة إلى الحاضر والماضى بنظرة مَشُوبة بشىء من الاحتقار. فهم دائمو التعلق بالمستقبل. وبتعبير آخر فإنهم يَقْصرون النظر، فى نطاق آخِر ما تم التوصُّل إليه فى الحاضر، لأنه سوف يُفْرِخ المستقبل. أمَا ما قبل ذلك، فإنه يجب أن يُهْمل، ويُغَض النظر عنه، لأنه مَشُوب بالأخطاء والزيف والكذب. وكل كلام أو تصرف لا ينسجم مع آخر صيحة حضارية، لا يساوى شَرْوَى نقير فى نظرهم.

* * *

الفصل الخامس

الكذب فى الكهولة

التدخلات بين مراحل النمو:

قبل أن نتناول الكذب فى الكهولة، فإن علينا أن نَتَذَكر أن ثمة تداخلات مستمرة فيما بين خصائص الكذب فى مراحل النمو المختلفة. فثمة تداخلات فيما يتعلق بالكذب، تقع خلال الطفولة والمراهقة على السواء من جهة، وخلال المراهقة والشباب من جهة ثانية، وخلال الشباب والكهولة من جهة ثالثة، وخلال الكهولة والشيخوخة من جهة رابعة. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، ثمة فروق فردية من شخص لآخر فى المرحلة العمرية الواحدة بإزاء ظاهرة الكذب ومن ثمَّ فإن ثمة فروقا فردية تتبدَّى لدى الأشخاص المتباينين الواقعين فى المرحلة العمرية الواحدة، بإزاء الخصائص النفسية عموماً، ومن بينها الخصائص المتعلقة بالكذب. فتتبدى لدى بعض

المراهقين بعض خصائص الكذب الخاصة بالطفولة، بالإضافة إلى خصائص الكذب المتعلقة بمرحلة المراهقة المنخرطين فيها، كما تتبدى لدى بعض الكهول (فيما بين ٣٠ ، ٥٠ سنة) خصائص الكذب الشائعة بين الشباب. وقل الشيء نفسه بإزاء الشيوخ الذين تتبدى لديهم خصائص الكذب المتعلقة بمرحلة الكهولة.

الخصائص العامة للكذب فى الكهولة:

ولكن مع هذا، فإن ثمة خصائص عامة لكل مرحلة عمرية، بإزاء ظاهرة الكذب. فلدى الكهول خصائص عامة، تجمع فيما بينهم بإزاء ظاهرة الكذب، لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى:

أولاً- الحفاظ على السمعة: فالكهل يكون حساسًا بالنسبة لسمعته فى المجال الذى يعمل فيه. فهو يكون حريصًا على كرامته، ويخشى أن تتلوّث سمعته بأن يذكر أى شخص شيئًا يَحُط منها. ولقد يستعين بالكذب بإزاء ما يذكره عن أصله وأرومته، فيُضفّى على أسرته من المجد والسؤدد، ما ليس لها فى الواقع شىء منهما. وإذا كان من الصنف الخجول، فإنه يتحاشى ذكر أى شىء عن أسرته، أو عن مسقط رأسه، حتى يُكّشف النقاب، عن أى شىء يسىء إليها. وكذا فإنه يتحاشى ذكر أى حادثة أو واقعة حدثت له فى الماضى تخدش

كـرامتـه، أو تحط من شـأنه. وإذا عـايره أحـد بموقف مُهِين أو بمشاجرة نشبت بينه وبين شخص آخر، فإنه ينكر حدوث أى مـشـاجـرة أصـلاً بينه وبين أى شـخص، أو يزعم أنه أوقف ذلك الشخص الذى يُزْعم أنه قد تشاجـر معه عنده حده، أو أنـه لطمه على وجهه فأسكته، ومن ثمَّ فليس هناك ما يمكن أن يُعَايَر به.

ثانياً- التلبُّس بمظاهر سلوكية قِشرية: ومن الأكـاذيب التى قـد تعتمل فى شخصيات بعض الكهول، انتحـاء الواحد منهم إلى تمثيل بعض المظاهر السلوكية الأخَّاذة حتى يُلقى فى رُوع من يقابلهم، أنه شخصية عظيمة، أو أنه متَّسم بالوجاهة والوسـامة، وأنه صاحب هيبـة ومكانة رفيـعة. ومن المظاهر السلوكيـة القِشْرية أيضًا، تقطيب الجبين، وافـتـعـال المشيـة الوقورة، والجلوس كالعظماء ملقيًا ساقًا على الساق الأخرى، والبطء الشديد فى التعبير عن الكلام، وتدخين السيجارة أو الغليون بطريقة متَّسمة بالكبرياء والعجرفة، أو التذرُّع بغير ذلك من مواقف وتصرفات وأوضاع، لكى تُضْفى على نفسه خصائص العظماء، ومَنْ يشار إليهم بالبنان.

ثالثاً- فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية: وفى الكهولة، يتحرَّز الكهل فى اختياره لأصدقائه، كما أنه يعمِد إلى فسخ الكثير من العلاقات الاجتماعية السابقة التى كانت قائمة بينه

وبين أصدقائه خلال مرحلة الشباب. فهو لا يُبقى إلا على الأصدقاء الذين يتواءمون معه عقليًا وعاطفيًا. وحتى بالنسبة لأولئك الأصدقاء الذين يبقى على علاقته بهم، فإنه يخفف من الرابطة الحميمة بهم. ذلك أنه يقيس قيمة الصديق فى ضوء مكانته الاجتماعية من جهة، وفى ضوء ما يمكن أن ينفعه به ماديًا أو أدبيًا من جهة أخرى. ولكنه لا يتخذ من الصديق فى الغالب وسيلة للترفيه عن النفس والتسلية، إذ إن الكهل يعتقد أن المرحلة العمرية التى ينخرط فيها - أعنى الكهولة - هى مرحلة الدأب والاجتهاد، للحصول على أكبر عائدة مادى، والتجهيز لمرحلة الشيخوخة، التى تَتَّسم بنقص الموارد المادية. فهو يتطلع إلى المستقبل بشىء من الخوف والهلع والتوجُّس. ولكنه فى جميع علاقاته، يؤكد لأصدقائه أنه غير مكترث بالمال، وأنه يحبهم لذواتهم، وليس لما يمكن أن ينفعوه به من مواقف وتعاملات.

رابعًا- إنكار السن الحقيقية: فبعد أن كان الكهل قبل انخراطه فى الكهولة يتفاخر بعمره الذى ببلوغه شب عن الطَّوْق، فإنه بعد انخراطه فى الكهولة، يخشى من أن ينخرط بعدها فى الشيخوخة، فينزاح بعيدًا عن مجال اهتمام الناس من حوله به، وبخاصة الجنس الآخر، فيبدأ فى الادعاء كذبًا، بأنه ما يزال شابًا مُفْعمًا بالنشاط والحيوية. ويتواكب مع هذا

تمثيل دور الفتوة والقوة والنشاط. فمهما كان الكهل ضعيفًا ومصابًا قبل الأوان ببعض أمراض الشيخوخة كالسكر والضغط، فإنه يحاول أن يخفى حقيقة أمره، عمن يتعامل معهم، زاعمًا أنه ممتلء بالصحة والعافية والفتوة وقوة الشكيمة.

خامساً- ادعاء الفتوَّة الجنسية: ومن الصفات التى تتمثل فى مرحلة الكهولة، انتحاء الكهل أو الكهلة إلى إنكار إصابتهما بأى ذبول فى فتوتهم الجنسية. صحيح أن الكهلات لا يصرِّحن بهذا، ولكنهن يزعمن كذبًا فى أحاديثهن، أن الدورة الشهرية ما تزال تواتيهن، حتى ولو كانت الواحدة منهن قد بلغت سن اليأس، أى حوالى الخامسة والأربعين. أما الكهل فإنه يزعم أنه صلب العود جنسيًا، وأنه ممتلىء حيوية ونشاطًا، وقدرة جنسية، حتى ولو كان مَعِينه الجنسى قد نَضُب، وأن ما أصيب به من أمراض قد عمل على إعاقة نشاطه الجنسى.

الديناميات النفسية للكذب فى الكهولة:

وبعد أن قدَّمنا هذه الخصائص الخمس لدى الكهل والكهلة وعلاقتها بالكذب، فإننا نلقى الضوء على الديناميات النفسية التى تعتمل لديهما، والتى لها صلة وثيقة بالكذب، فنجد أن تلك الديناميات، يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً- دينامية النكوص Regression: فثمة دينامية تعتمل فى قوام الكهل أو الكهلة، هى تلك الدينامية التى تؤدى بهما

إلى الرجوع بالوهم الفارغ من المضمون الحقيقى، إلى مرحلة الشباب، أو حتى إلى مرحلة المراهقة، فيعمد الكهل والكهلة إلى الرجوع بسلوكهما الاجتماعى، وبسلوكهما الجنسى إلى الوراء، ويتبدى هذا فيما يمثّلانه من علاقات وتصرفات وكلام. فتجد أن الكهل يُقْبل على مخالطة الشباب أو المراهقين، كما أن الكهلة تُقْبل على مخالطة الشابات والمراهقات، وأكثر من هذا فإن الواحد منهما يحاول أن يأتى بالحركات التى لا تتوافق مع المرحلة العمرية التى يمر بها، بل وأكثر من هذا، فإنه ينبو عن معاشرة الكهول المنخرطين فى سنه. زاعمًا أنه ليس منهم، بل من الشباب.

ثانيًا – دينامية التوجُّس من المستقبل: ومن جهة أخرى فإن الكهل أو الكهلة تنتابهما أحيانًا حالة من التخوُّف مما قد تتضمنه أحداث المستقبل من مزالق، أعنى عندما ينخرطان فى مرحلة الشيخوخة. فبينما تعمل دينامية النكوص على انخراطهما سلوكيًا فى مرحلة الشباب، أو حتى فى مرحلة المراهقة، فإن دينامية التوجُّس من المستقبل، تعمل على اغتمامهما وتشاؤمهما وتوجُّسهما، مما عسى أن تحمله لهما الشيخوخة من نوائب، تعمل على انطفاء بهجة الحياة فى أنظارهما، وضربهما بالضمور وفقدان الحيوية، والانتهاء بهما إلى الموت. ولكن الواقع أن الكهول ذكورًا وإناثًا ينقسمون إلى

فئتين: فئة تتغلب على أفرادها خاصية النكوص، وفئة أخرى تتغلّب على أفرادها خاصية التوجّس من المستقبل. ولكن من جهة أخرى فإن جميع الكهول يتقلّبون على هذين الاتجاهين، فينخرطون مرة فى إطار النكوص، بينما ينخرطون مرة أخرى فى إطار التوجّس من المستقبل.

ثالثاً - دينامية تجديد الأهداف: ومن الديناميات التى تعتمل فى قوام الكهل والكهلة، دينامية تجديد الأهداف. ولعل العامل الذى يدفعهما إلى تجديد أهدافهما، هو أن مرحلة الكهولة، هى المرحلة التى يحس خلالها الكهل والكهلة، أنهما فى ذرْوة العمر الإنتاجى، والاستقرار الوجدانى، وتناول الواقع الخارجى بطريقة عملية واقعية. بيد أنهما قد يَشْطحان فى ترسُّم أهداف غير قابلة للتنفيذ، إما لعدم وجود موهبة أو استعداد نفسى فطرى للتنفيذ لديهما، وإما لعدم اكتساب المهارات اللازمة لإخراج الأهداف التى ترسَّموها إلى حيِّز الواقع، وإما بسبب العقبات التى يمكن أن تعترض طريق حياتهما، وما يكتنفها من أحداث وظروف لم تكن متوقَّعة من جانبهما، وإما بسبب الإصابة بالأمراض التى لم يكن متوقعًا أن تصيبهما بعد انخراطهما فى مرحلة الكهولة، ولكنها أصابتهما فى سن مبكرة نسبيًا، أعنى فى هذه المرحلة. بيد أن عدم ترسُّم الأهداف القريبة والقابلة للتنفيذ، تشير إلى ما

يمكن أن تخيّم به المخيلة على عقل الكهل والكهلة، فيترسّمان أهدافًا غير واقعية، وبذا فإنهما يكذبان على نفسيهما، أو على الناس من حولهما، حتى يحظوا بثقتهم، وحتى يتحسن موقفهما أمام الزملاء والأسرة.

رابعًا- التعويض عما فات: فالكثير من الكهول ذكورًا وإناثًا، يتباكون على الفرص التى فلتت من أيديهم، ولم يستغلوها أن يستثمروها، فضاعت منهم ولكنهم يؤمّلون فى أو يعوّضوا عما فاتهم استغلاله وفلت من بين أيديهم. فمثلاً بالنسبة للتعليم، فإن منهم من يندمون على أنهم هجروا الدراسة، وانخرطوا مبكرًا فى الحياة العملية، وكان خليقًا بهم أن ينتظموا فى سلك التعليم أولاً، ثم ينخرطوا بعد ذلك فى الحياة العملية، ومنهم من يندمون على أنهم لم يشتغلوا بالأعمال الحرة، وعلى كل دقيقة ضيّعوها فى الوظيفة، التى لا تُدِر عليهم إلا أقل القليل. ومنهم من يندم على الفرص التى كانت مواتية للعمل بالبلاد العربية، أو فى بلاد المهجر، إلى غير ذلك من فرص ضاعت. ولكن الكهل أو الكهلة يأملان فى أن يعوّضا عما فاتهما بطريقة أو بأخرى. وسواء كانا صادقين فيما يخطّطان له، أم أنهما يركبان على أجنحة الخيال الكاذب، فإنهما فى الحالتين يؤمّلان سواء بالخيال فحسب، أم بالخيال والمحاولات الجادة والدائبة، فيخطّطان لما تبقّى من عمرهما

الإنتاجى، بعد أن ضاعت منهما الفرص العديدة، التى لا يمكن تعويضها إلا بجهد جَهيد.

خامساً- الندم على الانحرافات الأخلاقية: والكثير من الكهول، يأخذون فى محاسبة أنفسهم على خطايا ارتكبوها، سواء بعد انخراطهم فى الكهولة، أم قبل ذلك فى المراحل العمرية السابقة. ومنهم من تكون توبتهم عن الآثام والمعاصى التى اقترفوها صادقة، ومنهم من يتحمّسون للتّوبة، ولكنهم سرعان ما يرتدّون إلى ما سبق أن غاصوا فيه من انحرافات أخلاقية ونفسية حتى قمة رءوسهم. وبتعبير آخر، فإنهم يكذبون على أنفسهم وعلى الناس من حولهم، بادعاء الاستقامة، على الرغم من أنهم يتوهّمون أنهم تائبون بالشكل وليس بالجوهر وبالحقيقة النفسية الداخلية. ناهيك عن العادات الرديئة التى تمكّنت منهم. فالمدخن المدمن كثيراً ما يصمّم على أنه سوف يُقْلع عن التدخين نهائيًا، ولكن ما يكاد يمر أسبوع على إقلاعه عنه، حتى يعود إليه مرة أخرى بنَهم أكثر مما كان عليه حاله قبل تصميمه على التخلّص من تلك العادة الرديئة. ولكنه فى حقيقته النفسية، لا يكون صادقًا مع نفسه فى هذا الصدد.

* * *

الفصل السادس

الكذب فى الشيخوخة

خصائص الكذب عند الشيوخ:

قلنا إن ثمة تداخلاً فيما بين مراحل العمر المتعاقبة، سواء بالنسبة للخصائص النفسية العامة، أم بالنسبة للخصائص النفسية للكذب الشائعة فى كل مرحلة عمرية قياسًا إلى المرحلة السابقة عليها والمرحلة التالية لها. وحيث إن مرحلة الشيخوخة هى آخر مرحلة عمرية فى حياة المرء، لذا فإن من المتوقَّع أن يكون بينها وبين المرحلة السابقة عليها، أعنى مرحلة الكهولة، تداخل فيما يتعلَّق بدوافع الكذب. ولكن مع هذا، فإننا نستطيع أن نميِّز مجموعة من الخصائص النفسية المتعلقة بالكذب فى هذه المرحلة، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى:

أولاً - التباكى على الماضى: فالشيوخ فى جلساتهم مع

من يأنسون إليهم، يَعْقدون المقارنات بين ما كان عليه الوضع فى الماضى، أيام كانوا أطفالاً أو مراهقين أو شباباً، والوضع الذى آلت إليه الأحوال فى الحاضر. فهم يذكرون مثلاً مستوى الأسعار، عندما كانت البيضة بمليم واحد، كما قد يذكرون ما كان عليه الرخاء، وما كانت تَتَّسم به الحياة من راحة، وما كان يشيع فى الشوارع والحدائق والميادين من جمال. بيد أنهم ينسون أو يتناسون ذلك التخلُّف الحضارى، الذى كان المجتمع رازحًا تحت نيره، كما أنهم يُغْمضون أعينهم، عما تم إنجازه، وما صار إليه الحال بعد الفتوح العظيمة التى أحدثتها الحضارة. ولكن الشيوخ يكذبون على أنفسهم، ولا يرغبون فى الاعتراف بالمزايا التى تتوافر فى الوقت الحاضر للناس جميعًا، ولا يركِّزون أذهانهم إلا على زاوية واحدة هى زاوية الغلاء، وارتفاع أسعار المشتريات والمساكن ونحوها.

ثانيًا- التباكى على العلاقات الحميمة والمودة والصداقة التى كانت سائدة فى الماضى بين الناس: ومن الأكاذيب التى تشيع بين الشيوخ، تباكيهم على ما كان يسود من حب ووئام بين الأخوة والأخوات والأقارب والجيران والأصدقاء والمعارف، كما أنهم يدأبون على عقد المقارنات بين الحب والصداقة اللذين كانا يسودان على العلاقات بين الناس، وبين حالة الاغتراب التى يحس بها الجميع الآن. فقديمًا لم يكن الناس

يعترفون بوجود فوارق كما كانوا لا يعترفون بالحدود فيما بينهم. فكان الجار يلازم جاره، أو يزوره باستمرار وفى أى وقت، ويواسيه فى أحزانه، ولم يكن يفوته أى واجب يجب عليه أن يؤديه. ولكن اليوم لا يكاد الجار يعرف جاره، وإذا عرفه فإنه لا يأبَه به ولا يحييه إذا ما قابله فى الطريق أو حتى على سلم العمارة التى يقطنانها سويًا. ولكن الشيوخ يتناسون تلك المنازعات التى كانت فى الماضى تحتدم بين أغلب الجيران، بل وبين غالبية الأقارب والمعارف.

ثالثًا - التباكي على اختفاء العباقرة الأفذاذ: ومن الأكاذيب الشائعة بين الشيوخ، ما قد يصل إلى ما يشبه العبادة للسادة والقادة والمفكرين والفنانين وغيرهم من أفذاذ الماضى، مع التهوين من شأن القادة والمفكرين والفنانين الحاليين. فهم لا ينيطون بأى واحد من أفذاذ الماضى أى عيب أو نقيصة، ولكن إذا ما ذُكِر أى شخص لامع من المعاصرين، فإنهم يهوّنون من شأنه، ويقلّلون من عبقريته، بل قد يعمدون إلى ذمه وتلطيخ سمعته، واتهامه بالجهل أو ادعاء الذكاء والعبقرية. وأكثر من هذا فإنهم يجعلون من العيوب التى كانت لصيقة بعباقرة الماضى، مزايا أو دليلاً على عبقريتهم ونبوغهم وارتفاع مستواهم عن مستوى معاصريهم.

رابعًا- التأكيد على المزايا التى حققها جيل الشيوخ: ومن

الأكاذيب التى تشيع بين الشيوخ من الجنسين، إضفاء العبقرية على أنفسهم. فالواحد منهم يذكر كيف كان مجتهدًا فى دروسه، وأنه كان حريصًا على أداء واجباته المدرسية، كما كان متفوِّقًا بين أقرانه، ولم يرسب فى أى امتحان، ولم يحصل على تقدير فى أى مادة طوال حياته الدراسية أقل من الدرجة النهائية. ولولا الحظ العاثر، لكان إذن قد احتل مكان القمة بين من يشار إليهم بالبنان، أو ربما كان واحداً من الشخصيات العالمية.

خامساً- التشاؤم بإزاء مستقبل الأجيال القادمة: ومن الأكاذيب التى يفوه بها الشيوخ أيضًا، النَّعْى على مستقبل الأجيال الجديدة، والاعتقاد بأن حياة الأجيال السابقة، كانت مفعمة بالأمل والرجاء، وقد تحققت بالفعل آمالهم وأحلامهم. أما شباب اليوم، فإن مستقبلهم مظلم، وذلك لتقاعسهم وعدم التشمير عن ساعد الجد، ولارتمائهم فى حمأة الكسل، والجرى وراء مفاتن الحياة، وبخاصة الجنس والمخدرات. والواقع أن الشيوخ يعمِّمون فى نظرتهم وتقديرهم، لما ينحو إليه بعض الشباب والمراهقين من عبث ومجون، بينما ينيطون أجيالهم عندما كانت فى شرخ الشباب بكل الفضل والتقدير للمسئولية. وهم بهذه الأكاذيب يعتبرون أن القلة القليلة من الشباب الفاسد اليوم، ليست قلة، بل هى الكثرة الكثيرة، أو هى مجموع الشباب بأسره. والواقع أن المسألة نسبية. فإذا

أنت قارنت بين نسبة الشباب الفاسد اليوم، ونسبة الشباب الذى كان فاسداً أيام كان أولئك الشيوخ فى شبابهم، إذن لوجدت أن نسبة الشباب الفاسد اليوم قياساً إلى مجموع الشباب، أقل من النسبة التى كانت فاسدة قياساً إلى مجموع الشباب أيام كان أولئك الشيوخ شباباً. ومن الخطأ أن يؤخذ فى الاعتبار عدد الشباب الفاسد اليوم فقط دون النظر إلى نسبة الفاسدين إلى مجموع عدد الشباب.

الديناميات النفسية عند الشيوخ:

وعلينا بعد هذا، أن نلقى الضوء على الديناميات النفسية التى تعتمل فى قلوب وعقول الشيوخ، والتى ترتبط بما ينتحون إليه من كذب، فنجدها على النحو التالى:

أولاً- دينامية التعويض: فالشيوخ يحسون بأن أجيال الشباب والكهول، قد حلُّوا محلهم، واستولوا على مقاعدهم التى كانوا يشغلونها فى الحياة العملية، وأنهم قد نبذوهم وطردوهم من المواقع التى كانوا يشغلونها. ومن ثَمَّ فإن الغيرة تأكل صدورهم، ويرغبون فى التعويض عن الإحساس بأنهم قد نُفُوا بعيداً عن واقع المجتمع إلى هامش الحياة. فماذا عسى أن يكون موقفهم من أجيال الذين اغتصبوا ما كان فى قبضتهم، وأزاحوهم بعيداً عن نقاط التأثير فى الواقع الاجتماعى؟ إنهم

لا يجدون أمامهم سوى أن يَفُتُّوا فى عَضُدهم، وأن يقللوا من شأنهم، وأن يؤكدوا فى الوقت نفسه على أمجادهم السابقة، التى صارت فى عِداد الماضى المجهول، فيأخذون فى تذكيرهم بتلك الأمجاد القديمة، ويحذّرونهم من نسيانها. زاعمين أن كل خير يتأتى لهم اليوم، إنما هو ثمرة لجهادهم فى الحياة، أيام كانوا فى مواقع المسئولية، بينما يحذرونهم فى الوقت نفسه، من أن يضيّعوا ما تعبوا فى تشييده من صروح مجيدة، وقد تسلّموها بعد أن أزيح بهم من نطاق الأيدى العاملة، إلى نطاق التفرّج على ما سوف يفعلونه بتلك المنجزات التى حصلوا عليها، وقُدّمت إليهم لقمة سائغة.

ثانيًا – دينامية تأكيد الذات: والشيوخ بهذا الموقف الذى يعوّضون به عما انتهوا إليه من إزاحة إلى الهامش، القيام بتأكيد ذواتهم. ولكنهم لا يستطيعون أن يضطلعوا بأى عمل بعد أن استهلكوا طاقتهم الحيوية، وانزاحوا بعيدًا عن مجال الأعمال والأنشطة الاجتماعية المختلفة. إذن لا يبقى لهم سوى أن يؤكدوا ذواتهم، ويثبّتوا أقدامهم بالكلام وتقييم أنفسهم وغيرهم. ولكنهم فى تقييمهم لذواتهم من جهة، وفى تقييمهم للشباب والكهول من جهة أخرى، لا يتحرّون الدقة، بل ينحازون إلى أنفسهم، ويُعلّون من شأن جهودهم التى بذلوها، بينما يحاولون الحط من قيمة الشباب والكهول، مؤكدين أنهم لا

يعملون إلا على هدم ما تم تشييده من صروح عظيمة، كما أنهم لا يبذلون طاقتهم فى الجد وبذل العرق، بل ينفقون تلك الطاقة فى الهزل واللهو واللعب، دون أن يحسوا بالمسئولية الضخمة المنوطة بهم. فالشيوخ يتخذون إذن موقف المتباكى على الماضى، زاعمين أن ما قاموا بتشييده من منجزات هائلة، ينهار أمامهم بسبب التواكل والنظر إلى الحياة بنظرة استهتار وضياع.

ثالثًا- دينامية الإحساس بالاضطهاد والإهمال: فالكثير من الشيوخ، يتهمون أجيال الشباب والكهول، بأنهم أنانيون لايعبأون بهم، بل ينظرون إليهم باحتقار، وقد نسوا أو تناسوا، تلك الجهود الضخمة والممارسات المستمرة والدائبة التى كانوا يقدمونها، عندما كانوا فى مضمار الحياة العملية كما نسوا أن الأجيال التى تسلمت زمام العمل فى الحياة الواقعية، كانوا فى كَنَفهم، وضمن مسئوليتهم، فنهضوا بواجباتهم تجاههم واضطلعوا بتوجيههم وتدريبهم على خير وجه، بينما يجدونهم اليوم بعد أن صارت المقاليد فى أيديهم لا يعبأون بهم، بل يعتبرونهم عالة على المجتمع، ويتمنون لو يختفون من سطح البسيطة، وأن يختفوا تمامًا من واقع الحياة. فهم يعتبرون أن الشيوخ يمتصون خيرات المجتمع، وأن الأولى بهم أن يموتوا، لأن الحياة لا تحتملهم، وأن لقمة الخبز التى يأكلونها، أولى بها الناشئة، الذين ينفعون مجتمعهم اليوم، أو سوف ينفعون مجتمعهم فى الغد القريب أو فى الغد البعيد، بما يبذلونه اليوم أو ما

سوف يبذلونه من عرق. أما الشيوخ فإنهم بلا أمل يناط بهم، وقد انزووا بعيدًا عن واقع الحياة. فما فائدتهم اليوم وطوال فترة حياتهم المتبقية؟ إن تقييم الإنسان السائد حاليًا، لا يقيس المرء إلا فى ضوء ما يمكن أن يتأتى عن وجوده من فوائد. فالشيوخ بهذا المقياس الحضارى ليس لهم أى قيمة تُذْكر.

رابعًا – دينامية تسجيل المآثر: والشيوخ يخشون من ضياع ذكراهم، فيعمدون إلى تسجيل أفضالهم وكفاحهم، حتى يسترعوا انتباه أجيال الشباب والكهول لأفضالهم، وما حققوه فى كفاحهم الطويل. ومن الطبيعى أنهم ينتقون أفضل ما يتضمنه تاريخهم من أعمال باهرة، ولكنهم يتحاشون ذكر أى شىء عن نقائصهم وأخطائهم. وحتى العقبات التى اعترضت طريق تقدُّمهم فى الحياة، لا يعترفون بأنها ترجع لتقصيرهم وتواكلهم، بل ينسبونها إلى العقبات التى كانت خارج نطاق إرادتهم. ولكنهم يعمدون على كل حال إلى تمجيد أنفسهم، وإظهار حياتهم وحياة رفقائهم فى أبهى حُلَّة ممكنة. وبهذا فإن ما يسجلونه عن أنفسهم، لا يكون متطابقًا مع الحقيقة كما حدثت، بل يكون مُغَرَبلاً وخاليًا مما يؤخذ عليهم. فهم يُنَصِّبون من أنفسهم محامين يدافعون عن عرشهم المفقود، بينما يتهمون الأجيال الجديدة بالانتقاص من قَدْرهم، وعدم وضعهم أو تقييمهم فى الوضع المناسب لمكانتهم، وبالتقييم الذى يستحقونه. وهم ينددون بالأجيال الحديثة التى تعتبر

أجيالاً عاقَّة، ولا تعترف لهم بأى جميل أو فضل فى تنشئتهم وتقديم الخبرات القيِّمة لهم، والتى كان لها الفضل فى تقدُّمهم حثيثًا إلى الأمام، وتثبيت أقدامهم، فلولاهم لكانوا يَعْمَهون فى حياتهم، ويَعْمُون عن الأهداف التى يجب أن يتوخُّوها، أعنى الأهداف التى وضعها لهم الكبار الذين رُكِنوا اليوم فى هامش الحياة بعد انخراطهم فى الشيخوخة.

خامساً - دينامية السلبية والانزوائية: والكثير من الشيوخ يبخلون بخبراتهم، ويفضِّلون أن يخنقوها، على أن يقدموها لأجيال الشباب والكهول. فبعض الموظفين الذين كانت فى أيديهم المستندات واللوائح أخذوا يعمِدون إلى إخفائها عندما يُحَالون إلى المعاش، حتى لا يقف عليها الذى يَحِلُّون محلهم، ويضطلعون بوظائفهم. ومن ثمَّ يجدون أنفسهم فى حَيْص بَيْص، فيتأكد الجميع أنهم غير أكْفاء قياسًا إلى من أحيلوا إلى المعاش، وأن أولئك القدامى الذين أزيحوا بعيدًا عن الضوء، لا يمكن تعويضهم، أو أن يعثر على أمثالهم فى الكفاءة والاقتدار والعبقرية. والواقع أن التصرفات من هذا القبيل، تندرج فى نطاق الكذب العملى، لأنهم يبرهنون بتلك التصرفات الوضيعة على إحرازهم لمزايا مزيَّفة، لا يستحقون أن تنسب إليهم من قريب أو من بعيد.

* * *

الفصل السابع

الكذب عند الذكور

موضوعات الكذب عند الذكور:

يختلف الذكور عن الإناث فيما يتعلق بأنواع الكذب التى ينتحون إليها. ولعلنا نقوم فيما يلى بتقديم أهم الموضوعات التى ينتحى إليها الذكور فيما يتعلق بالكذب:

أولاً- فيما يتعلّق بالفُتُوة وقوة الشكيمة: فالذكور بصفة عامة، يعتدُّون بما فى حوزتهم من قوة. فالرجل منذ قديم الزمان، وهو يَصْدر فى أنشطته عما وُهِبه من قوة عضلية، ومن قدرة على اقتحام الصِعَاب، والسيطرة على ما يحيط به من أشياء وأحياء وعلى من هم أضعف منه من آدميين، بقوة عضلاته وبما يستعين به من وسائل مادية أو معنوية تَدْعم قوته، وتوفِّر له القدرة على السيطرة، والتعبير عما فى مُكْنته من قوة الشكيمة، ومن طاقة حيوية متدفّقة وكبَيرة. ولقد

صارت القوة التى يستعين بها الذكور بمثابة غريزة تعتمل فى قوامهم. فيُعَايَر الطفل أو المراهق أو الشاب أو الكهل، إذا لم يُبْدِ من القوة ما ينم عن الفتوّة، والقدرة على التغلب على ما يعترض طريقه من عقبات، أو قهر من يحاولون استذلاله من أشخاص، ومن يستهدفون التغلُّب عليه. وهذا يتجلى فى ممارسة الملاكمة والمصارعة، ونحو ذلك من ممارسات رياضية، يقصد بها المغالبة، وإبداء القوة والمَضَاء، ورباطة الجأش، وقهر من يعترض طريقه من خصوم، والوقوف بصلابة وعزيمة ثابتة أمام الحواجز، والتصدى بعزيمة لا تُفَل أمام ما يمكن أن يهدِّده، فلا يحسب إذن ضمن فئة الضعفاء والجبناء، الذين يعتورهم الشعور بالخوف والخذلان. ولكن ما من طفل أو مراهق أو شاب أو كهل أو حتى شيخ، مهما كان ضعيف البنية، وعاجزًا عن إبداء القوة والشكيمة الصلبة، إلا ويزعم كذبًا لمن يتعامل معهم، أو يحس نحوهم بأنهم مصدر تهديد له، أنه يستطيع مقاومتهم، والوقوف لهم بالمرصاد بغير خوف أو ارتعاد. فغريزة القوة التى تعتمل فى قوام الذكور، تظل متبدِّية فى سلوكهم، حتى ولو كان رصيدها الفعلى قد نَفَد، وقد تضعضعت قوتهم، وصاروا من بين الضعفاء المتهافتين.

ثانيًا- الجاذبية الجنسية: ومن الأكاذيب التى قد تسيطر على فئة الذكور، الاعتقاد فى أن لدى الواحد منهم جاذبية

جنسية حادة، تجعل الإناث يُقْبلن عليه، ويتعلَّقن به، ويرغبن فى الاقتراب منه، وإقامة صلة به. وعلى الرغم من أن هذا الاعتقاد يشير إلى ظاهرة نفسية عامة، وليس إلى مجرد ظاهرة خاصة بمراهق أو شاب بالذات، إذ إن من الطبيعى أن تكون هناك جاذبية جنسية بين أفراد الجنسين المتقابلين، فإن الأكذوبة التى يمكن أن ينخدع بها بعض الرجال، هى أنه هو بالذات، متميِّز عن غيره، وأنه قد وُهِب من تلك الجاذبية الجنسية ما لم يُوَّهب به إلا أقل القليل من فئة الذكور.

ثالثاً– سعَة الحيلة: ومن الأكاذيب التى يمكن أن يَكْذب بها الرجل على نفسه وعلى غيره، الاعتقاد فى أنه على مستوى مرتفع من الذكاء، ،وأن بمقدوره أن يجد لكل مشكلة حلاً، وأنه يستطيع أن يَشُق طريقه فى الحياة بنجاح. وهو فى إقباله على الارتباط بالزواج، يحاول أن يُقْنع الأنثى التى سوف يرتبط بها من بنات حواء، أنه خليق بثقتها فى أنه سوف يوفِّر لها جميع مطالبها، كما أنه خليق بأن يوفِّر لها جميع الإمكانات التى تجعلها مطمئنة إلى حاضرها ومستقبلها جميعًا، بل ومستقبل من سوف تنجبهم منه من أولاد، وأنه سوف لا يألو جهدًا عن أن يكافح فى الحياة، بما أهِّل به من عبقرية وسَعَة حيلة، فيكون بذلك محقِّقًا لما تهفو إليه نفسها، ويحقق لها فرصة عمرها، إن هى وافقت على الارتباط به،

وتكريس قلبها وعقلها وحياتها كلها له، وبذا فإنهما يهنآن سويًا فى عُش زوجية سعيد.

رابعًا – أكذوبة الحظ المُوَاتى: ومن الأكاذيب التى ترتسم فى عقول كثير من الرجال، أكذوبة الحظ الباسم، الذى لا يكون ثمة توقُّع أو أسباب تُفْضى إليه، أو تفتح مغاليقه المستحكمة. وشاهد ذلك تلك القصص الخرافية التى حاكها الرجال منذ قديم الزمان، عن الرجال الفقراء الذين فوجئوا بالكنوز تفتح فجأة أمامهم، فيستحيلون من حالة الفقر المُدْقع إلى سؤدد الثراء الفاحش. فليس إذن بالاجتهاد وَحْده يستحيل الفقير إلى ثرى، بل بالحظ المفاجئ أيضًا، وبواسطة النُّقْلة غير المتوقَّعة من حال متواضع إلى حال رفيع المستوى.

خامسًا– أكذوبة المغامرات غير المحسوبة: ومن الأكاذيب التى يمكن أن تلعب بعقل الرجل، ما يمكن أن يحصل عليه من المقامرة. وهذه الأكذوبة لا تقتصر على لعب القمار، بل تمتد لتشمل جميع المقامرات والمغامرات غير المحسوبة التى يُصَدِّقها كثير من الرجال، فيغامرون بالانخراط فى مشروعات أو فى هجرة أو فى الاشتراك فى مشروع تجارى، دون معرفة بالعواقب. وحتى بالنسبة للزواج، فإن الكثير من الرجال يَقَعون فى أحابيل نساء مستهترات، يُغْرين الرجال بالجمال أو

بالمظاهر الخداعة، وقد بَرَعن فى إخفاء حقيقتهن المُنْحطة والخبيثة عن أعينهم، فوقعوا فى شراكهن التى نَصبْنها لهم. ولا يفيق الواحد منهم، إلا بعد أن يكون قد وقع فى الخَيَّة.

الديناميات النفسية للكذب عند الذكور:

وبعد أن استعرضنا هذه الأنواع الخمسة من الأكاذيب، التى تتبدى فى سلوك الذكور، فإن علينا أن نقوم باستعراض الديناميات النفسية التى تعتمل فى قوامهم، والتى تدفع بهم إلى الانتحاء إلى تلك الأكاذيب، سواء كانت أكاذيب ذاتية، يكذب بها الرجل على نفسه، أم كانت أكاذيب غَيْرية يكذب بها على الآخرين. فنجد أن تلك الديناميات النفسية، يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً - غريزة الذكورة: فالواقع أن لغريزة الذكورة خصائصها الخاصة بها، كما أن لغريزة الأنوثة خصائصها. صحيح أن الحضارة والتربية، يمكن أن تعملا على تعديل غريزة الذكورة عند الرجال، وغريزة الأنوثة عند النساء، ولكن الأصل وما تَتَّسم به كل من هاتين الغريزتين يتبدَّى فى شكل أو آخر لدى كل طرف من هذين الطرفين.

ثانياً- تعديل الواقع غير المُواتي: ومن الديناميات النفسية التى تعتمل لدى الرجل، وتدفع به إلى الكذب الذاتى

والكذب الغَيْرى، ما يحيط به من واقع حياتى غير مواتٍ. فالحياة لا تنهج وَفْق ما يشاء، بل كثيرًا ما تتربَّص به الدوائر، فيحاول أن يَسُد الثُغَرات، أو أن يعوِّض عن النقص، أو أن يتغلَّب على ما يخيِّم على حياته من عقبات، وأن يقهر ما يعتور تقدمه من مشاكل، فيتذرَّع بالخيال ويُجيله فى واقعه، ثم يقدِّم إلى الناس من حوله، ما كان يتمنى أن يكون، وما يتخيله فى أحسن صورة، وذلك بالتعبير عن ذلك النموذج الخيالى غير الحقيقى بطريقة تماشى وتنسجم، مع تلك الأخيلة الفارغة من المضمون الحقيقى الواقعى.

ثالثًا- ديناميـة رفع الشأن: وبالإضافة إلى هذا، فإن الرجل يُحب أن يرفع من شأن نفسه وشأن أسرته ومسقط رأسه، فيعمِد أولاً إلى استبعاد ما يخدش الحياء عن نفسه وعن أسرته، وأن يقدِّم إلى الناس صورة رائعة عن نفسه ووضعه ومكانته، وما كانت عليه أسرته من أمجاد وعظمة. فإذا كان من أجداده من كانوا حاصلين على الألقاب الرفيعة كالباشوية مثلاً، فإنه يعمد فى كل مناسبة إلى ذكرهم واستعراض مآثرهم، وأفضالهم على من كانوا تحت أيديهم، وإذا كان من أقربائه من يُشَار له بالبنان بفضل الشهرة الفنية أو الأدبية أو العلمية أو السياسية أو الدينية، فإنه ينتهز كل

فرصة، لكى ينسب نفسه إليهم، ويأخذ فى تمجيدهم. وحتى إذا كانت الأسرة تنتسب إلى الإقطاعيين، أو إلى دولة حكمت البلاد كالأتراك مثلاً، فإنه يذكر انتسابه إليهم باعتبار أنه من سلالة الحَسَب والنَسَب.

رابعًا- دينامية الوشائج الوُدّية: فالرجل يحب أن تنشأ وشائج حميمة بينه وبين الآخرين من حوله الذين يتعامل معهم، ويقيم صلات بهم. ومن ثمَّ فإنه يتخذ من الأكاذيب وسيلة تجعل لشخصيته جاذبية خاصة، وذلك هو شأن كثير من الناس الذين يتعامل معهم ويشاركونه فى عشق ما هو خيالى غير حقيقى. خذ مثالاً لذلك الشخص النمَّام أو المفترِى على الآخرين. الذى قد يزعم أنه قد صدرت عنهم تصرفات دنيئة. إنك تجد أن الآذان تُصْغى لمن يلوك تلك النمائم والافتراءات بشغف شديد. الأمر الذى يجعل للنمام والمفترى شعبية ووضع متميز بينهم. والواقع أن المجتمعين حوله، هم الذين يشجعونه، على أن يسبح بخياله فيما يُشَنِّف آذانهم، ويحلمهم على الانجذاب نحوه، والإنصات إلى أكاذيبه، بل إن أحدًا منهم لا يحاول تكذيبه، بل يميل الجميع إلى تصديقه، وتشجيعه على الاستمرار فى تلك الأكاذيب، وقد هيئوا أنفسهم لتصديق كل ما يقوله، دون ارتياب فيما يذكره لهم من أحداث وأقوال اختلقها اختلاقًا.

خامساً- دينامية الانتساب إلى المثقفين: والرجل الذى حُرِم من التعليم، ولكنه يتمنى بعد فوات الأوان أن ينسب إلى فئة المتعلمين، يحرص على أن يحمل فى يده إحدى الجرائد أو احد الكتب وهو سائر فى الطريق، مُدَّعيًا أنه مداوم على القراءة والاطلاع على الجديد، أو أنه يتابع الأخبار التى يذيعها الراديو ويبثها التليفزيون، فيردد آخر ما وقف عليه من أخبار، حتى لا يُتَّهم بالجهل. ولقد يأخذ فى انتقاد بعض الصحفيين اللآمعين، وذلك بتفنيد ما ذهبوا إليه من آراء، أو حتى قد ينعَى على ساسة بعض الدول الكبرى، لأنهم هم الذين يدبرون الاغتيالات ويخطِّطون للإرهاب، وذلك لأنهم يعتزمون السيطرة على العالم، أو غير ذلك من مظاهر ثقافية يدأب على ترديدها، مع أنه خالى الوفاض من أى ثقافة سياسة، ولكنه يزغم أنه شخصية مثقفة، ويكون سلوكه هذا شاهدا على كذبه على نفسه وعلى غيره، لأنه يحس بأنه محروم من الثقافة التى كان يتمنى إحرازه لها.

دور التربية فى تنقية سلوك الرجال من الكذب:

وعلينا فى نهاية المطاف، أن نعرض للدور المنوط بالتربية، حتى يتسنى تهذيب سلوك فئة الذكور، وتخليصهم مما يمكن أن يَعْلق بشخصياتهم من كذب على الذات، ومن كذب على

الآخرين، فنجد أن هذا الدور يتلخص فى توفير الخيارات الخصبة أمامهم. فالواقع أن الخيارات التى يمكن أن تتوافر أمام الذكور فى جميع الأعمار، تقضى على كثير من الأوهام التى يمكن أن تحملهم على التلبس بالكذب، وانتحال أخيلة يتمنون أن تتحقق لهم ولو فى الخيال، أو أن ينسبوا إلى أنفسهم أوضاعًا ومزايا، هم أبعد ما يكونون عنها. فكلما قام المجتمع بدوره التربوى فى توفير خيارات خصبة أمام جميع الذكور فى جميع الأعمار، فإنهم سوف يَنْفضون عن أخيلتهم تلك المزاعم الكاذبة، ويقفون على أرض الواقع، بل يكون فى مقدور من يرغب منهم فى شق طريق جديد فى حياته أن يَشقه، دون أن يلجأ إلى الأكاذيب الخالية من المضمون الواقعى.

* * *

الفصل الثامن

الكذب عند الإناث

خصائص الكذب عند الإناث:

على الرغم من وجود خصائص مشتركة بإزاء النزعة إلى الكذب بين الذكور والإناث، فإن ثمة خصائص فى هذا الصدد تميِّز الإناث عن الذكور، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى:

أولاً- الجمال الكاذب: فمنذ حواء، والمرأة تكذب بموقفها من مستوى جمالها، بما تحاول أن تضفيه على مظهرها من جمال، وبما تحاول أن تُخفيه من خِلقتها من قُبْح. فالكذب لا ينحصر بالضرورة فى الكلام الذى يقوله المرء. بل قد يتبدَّى فى تصرفاته أيضًا، وفيما يتخذه من توجُّهات. فالمرأة التى تقوم بتعديل شكلها الذى خلقت عليه، تكون كاذبة من الناحية السلوكية البادية للعيان. فثمة جمال طبيعى من جهة، أى النِسَب الجمالية التى خلقت المرأة وَفْقها، ولون

بشرتها، وثمة جمال صناعى بما تصبغ به وجهها وشفتيها وأظفارها من مساحيق وألوان، وبما تُشَكِّل به حاجبيها من إزالة لجزء من شعرهما، وإضافة كحل إليهما، أى أنها ترسم شكلاً جديدًا لوجهها، يختلف قليلاً أو كثيرًا عن الوجه الطبيعى الذى خُلقت به.

ثانيًا - التصابى وتزييف العمر: ومن الأكاذيب الشائعة بين الأكاذيب الشائعة بين الإناث، ما يتعلَّق بأعمارهن، والمحاولات الدائبة للتصابى، والظهور أمام الناس بمظهر رشيق، والإتيان بالحركات التى تؤكد أنهن فى رَيّعان الشباب. فمهما تقدَّمت المرأة فى السن، فإنها تُصِر على أن تظهر أمام الآخرين بمظهر النضارة والحيوية المتدفقة، مؤكِّدة أنها فى رَيعان الشباب.

ثالثًا- التعفُّف والتمنُّع الجنسي: فالغالبية العظمى من الزوجات، يتمنَّعن ويتثاقلْن عن تقبُّل المباشرة مع أزواجهن، ويُبّدين امتعاضًا وعدم الرغبة فى المضاجعة الجنسية، على الرغم من أنهن يَكُن فى غاية الشوق إلى ذلك. فهذا النوع من الكذب الموقفى، يحمل الأزواج على الإلحاح عليهن واسترضائهن ومداعبتهن، فتكون لزوجاتهم بهذا الموقف الذى يَتَّخذْنه، قيمة كبيرة فى أنظارهم، ويعتبرون أن هذا التمنُّع دليل قاطع على طهارة الذيل، والتعفُّف عن الشهوة الجنسية.

رابعاً- دَرْء الحسد بالأكاذيب: ومن الأكاذيب التى تنتشر بين الإناث، تلك التى يتذرعن بها، حتى يحمين أنفسهن من سهام الحسد التى يعتقدن أن الآخرين - سواء كانوا ذكوراً أم إناثًا - يوجهونها إليهن، بالنظرات، أو بالكلام الذى يكون فى ظاهره مديحًا، وفى جوهره حسدًا. ومن أهم الأسلحة المضادة لما تتذرَّع به الإناث الخائفات من أن تصيبهن سهام الحسد، التشكِّى من المرض، أو من ضيق ذات اليد، أو من المعاملة السيِّئة التى يتلَّقينها من أزواجهن، أو من عدم انتظام أولادهن على الاستذكار، أو قد ينتحين إلى إخفاء المزايا التى يتمتَّعن بها، بل والحط من وضعهن ومما أصابهن من نوائب ومن سوء حظ. وقد تعمِد بعض الإناث إلى الرد على سهام الحسد، بسهام مضادة، وذلك بالمبالغة فى مديح من يحسدهن. فالمديح الموجَّه إليهن الذى يحمل حسداً فى ثنِاياه، لا يَجُبُّه فى اعتقادهن إلا مديح مماثل. فهن يعتقدن أن الحسد لا يُبْطِل مفعوله إلا حسد مماثل، أو كما يقال فى الأمثال لا يَفِل الحديد إلا الحديد.

خامساً- الافتراءات والمبالغات: ومن الأكاذيب الشائعة بين الإناث، ما يَتَّسم به كثير من كلامهن بالفِرْيات والمبالغات، بإزاء من يكرهوهن أو يَغَرن منهن. فإذا ما ثارت ثائرة الواحدة من هذه الفئة المتَّسمة بالافتراء وبالمبالغة فى تصوير المواقف،

فإنها تختلق مواقف لم تحدث أصلاً، أو حدثت بطريقة أخرى غير الطريقة التى تصفها بها. وتَشْتعل الأكاذيب من هذا النوع بصفة خاصة بين زوجة الابن وحماتها، أو بين الزوجة وأخت الزوج. ناهيك عما يحدث من خلافات على الإرث، أو بإزاء المشروعات التجارية، أو بين الجيران بعضهم وبعض، أو بين النسائب بعضهم وبعض، ففى جميع هذه الحالات وغيرها، تتفشى الافتراءات والمبالغات التى تعتبر من صميم الكذب، سواء كانت تلك الافتراءات والمبالغات ذات أساس، أو تشتمل على لمحة من الواقع، أم كانت مختَلَقة تمامًا.

ديناميات الكذب عن الإناث:

وعلينا بعد أن قدمنا هذه الأنواع الخمسة من الكذب الذى ينتشر بين الإناث، أن نستعرض الديناميات النفسية التى تَدْفع بالإناث إلى الكذب:

أولاً- دينامية تأكيد الذات: فالأنثى تحاول جاهدة أن تؤكد ذاتها ووجودها. فالغريزة الأنثوية هى غريزة بقاء النوع البشرى. ذلك أن المرأة بطبيعتها هى المسئولة عن تكاثره واستمرار وجوده. من هنا فإنها كلما أكدت وجودها جنسيًا، فإنها تضمن إقبال زوجها عليها، ومضاجعتها والإنجاب منها. ولكن مع تقدُّم الحضارة فإن تأكيد الذات قد استمر معتملاً

فى قوام المرأة، حتى بغير أن يرتبط ذلك التأكيد، بالرغبة فى التناسل وزيادة عدد الأطفال.

ثانياً- دينامية الغيرة: ومن الديناميات التى تعتمل فى قوام الإناث، دينامية الغيرة من الإناث الأخريات. فثمة تنافس مستمر فيما بين جميع الإناث. فكل واحدة منهن، ترغب فى أن تتفوّق فى جمالها على الأخريات. وبخاصة من يُحتمل أن يعجب الزوج بهن لأنهن جميلات. فالزوجة بحكم غريزتها، ترغب فى أن تستأثر جنسيًا بزوجها، وألا يشاركها أحد فيه، سواء من الناحية الجنسية أم من الناحية الاجتماعية أم من الناحية النفسية. ومن ثمَّ فإن اهتمامها بنفسها، ينبعث من هذه الغيرة المحتدمة فى قوامها الأنثوى.

ثالثاً- دينامية الأمن والطمأنينة: ومن الديناميات التى تعتمل فى قوام الإناث، دينامية البقاء فى حالة أمن وطمأنينة. ولذا فإنهن ينتحين إلى الكذب، حفاظًا على هذا الأمن والطمأنينة، سواء كان خوفها من الحسد، أم من إغارة إحدى النساء الأخريات على عُشها الزوجى، والاستيلاء على الزوج، وعلى ما يمتلكه من مال، وضياعها بالتالى فى غياهب الفقر والجوع جنسيًا وماليًا.

رابعاً- دينامية الإثارة وجذب الانتباه: فمن عوامل الانتحاء إلى الكذب، رغبة الأنثى فى إثارة الاهتمام بشخصها،

وبما تفوه به من كلام، وبما تأتيه من حركات، وبما تتخذه من مواقف، وبما يَصّدر عنها من تصرفات. ناهيك عن أنها ترغب دائمًا فى أن تكون فى بؤرة الاهتمام، وفى مكان مرموق بين مَنْ تخالطهم. فهى تتذرَّع بالأكاذيب تأكيدًا لوجودها بين أسرتها وصديقاتها وجيرانها.

خامسًا- دينامية تأجُّج الوجدان: ومن الديناميات التى تعتمل بقوة فى قوام الإناث، هذه الدينامية التى تعتمل على إهاجة وجدانها. والواقع أن الوجدان بمثابة الخامة التى تصنَّع منها العواطف. وبالإضافة إلى هذا، فإن الوجدان بمثابة الطاقة التى تؤدى إلى نشوب الانفعالات كالضحك والغضب والبكاء. ومما يعمل على انتحاء كثير من الإناث إلى الكذب، احتدام الوجدان بدخائلهن، وضغطه على جدار الشخصية، لعله يجد منفذًا يخرج عن طريقه إلى ظاهرية السلوك، فتعمِد الأنثى إلى اختلاق مبرِّر لخروجه، فتعثر عليه فيما تنحَو إليه من أكاذيب، قد تكون بلا أساس على الإطلاق، كما يمكن أن يكون لها أساس طفيف، فتعمِد إلى تقويته بالمبالغات الخيالية، وبذا يتسنى لها أن تُفَضّفض عما يجيش فى صدرها، من وجدان ثائر فى هيئة انفعال.

ما يجب أن تضطلع به التربية:

وعلينا بعد هذا أن نلقى الضوء على الدور الذى يمكن

أن تضطلع به التربية، بإزاء كذب الإناث، فنجد أن هذا الدور الذى يمكن أن يهذّبهن، ويصقل سلوكهن، يتضمن ما يأتى:

أولاً- التخصيب الثقافى: فمما لاشك فيه، أن الثقافة التى يحصل عليها المرء، تعمل على شغل وقته، وعلى خَلْق اهتمامات جديدة لديه، وعلى صقل شخصيته بحيث تقترب أكثر فأكثر من الصدق الكلامى والصدق مع الذات، بل والصدق السلوكى بصفة عامة. بيد أن الثقافة لا تنحصر فى نطاق الثقافة المعرفية فحسب، بل تتسع لأكثر من هذا، فتتضمن إلى جانب الثقافة المعرفية، الثقافة المهارية الحركية، والثقافة المهارية الاجتماعية، كما تتضمن الثقافة التذوقية الجمالية، والثقافة المستقبلية، أعنى التطلّع إلى ما يمكن الوقوف عليه عن طريق امتداد البصيرة من الحاضر إلى المستقبل، سواء مستقبل المرء نفسه، أم مستقبل الآخرين، وما يمكن أن يقع من أحداث فى نطاق ضيِّق أم فى نطاق واسع. والإناث المثقفات لا يجدن الوقت للكذب على الآخرين، بل إنهن يجدن من المشاغل الثقافية، ما يُغْنيهن عن الانتحاء إلى الكذب بصفة عامة، أى الكذب بأنواعه الخمسة التى عرضنا لها آنفًا.

ثانيًا - توفير الضمانات الزوجية: فمما لاشك فيه، أن الخوف من الغَدْر الذى يمكن أن ينتحى إليه الزوج، يعمل على انتحاء كثير من الزوجات إلى اختلاق المواقف والأحداث التى

ليس لها أى رصيد من الواقع الذى حدث بالفعل. ولكن إذا ما ضَمِنت المرأة حقوقها، وإذا ما توافرت الظروف وسُنَّت القوانين التى تحميها من غدر الزوج، فإنها سوف تُقْلع بالتأكيد عن كثير من أنواع الكذب، التى تتردَّى فيها كثير من الزوجات.

ثالثاً- فهم طبيعة الأنثى: فالواقع أن من الخطأ تناول كذب الإناث فى ضوء القيم الأخلاقية فحسب، دون أخذ طبيعة الأنثى فى الاعتبار، والإغضاء عن العوامل السيكولوجية التى تحملها على الكذب. فتناول الكذب، إما أن يكون فى ضوء ما ينتهى إليه من نتائج تترتب عليه، وإما أن يكون فى ضوء الجذور والأسباب التى تؤدى إليه. والموقف الأول هو الموقف الأخلاقى. أما الموقف الثانى فهو الموقف السيكولوجى الذى يجب اتباعه، حتى يتسنى علاج السلوك، كما يفعل الطبيب عندما يتناول إحدى الحالات المرضية. فهو يركِّز الانتباه فى ضوء العوامل التى أدَّت إلى حدوث المرض، قبل أن يبدأ فى وصف الدواء. فالتشخيص والوقوف على العوامل المؤدِّية إلى الإصابة بالمرض تَسْبق العلاج منه. ومن الخطأ بالطبع أخذ الأنثى بالشدة، وتوقيع العقوبات المختلفة عليها، بل يجب علاجها بتوفير الظروف المناسبة التى تؤدى إلى إقلاعها عن الكذب.

* * *

الفصل التاسع

الكذب عند الفنان

الصدق الفنى والكذب الفنى:

لاشك أن الإنتاج الفنى لابد أن يكون إبداعيًا، وإلا فإنه يكون تكرارًا لما سبق أن قُدِّم إلى الناس. وحتى ما يضطلع به الفنان من رسم للوحات، أو من نحت للتماثيل التى تشير إلى أشياء أو أشخاص حقيقيين، فإنه فى قيامه بالرسم أو النحت، لا يُطَابق فى عمله بين الواقع، وبين ما يقوم برسمه أو بنحته، بل يُضْفى على إنتاجه الفنى صِبْغته الخاصة، وبصمته الفنية الفريدة. وبتعبير آخر، فإن ثمة مفارقة أكيدة بين الواقع الموضوعى الخارجى، وبين الإنتاج الفنى أيًا كان ذلك الإنتاج. وما يسمى بالصدق الفنى، هو فى الواقع صدق فى مدى انسجام الفنان وتآلفه مع تذوقاته الفنية، ولكنه ليس مطابقة بين ذاتيته وبين الواقع الموضوعى الخارجى. ومعنى هذا أن

ثمة تبـاينا فيـمـا بين إبداع الفنان وبين الواقع الموضـوعى الذى يُشِيـر إليه. فـمـا يسـمـى بالصـدق الفنى، هو صـدق ذات الفنان مـع نفـسـه، ولـكنه فى المقـابل، هـو كـذب الفـنان بإزاء الواقـع الخارجى الذى يشير إليه.

أضواء على الكذب الفنى عند الفنان:

ولعلنا نُلْقى الضوء على مـا أسـميناه بالكذب الفنـى عند الفنان، فنجد أن هذا الكذب الفنـى يتضمن الجوانب التالية.

أولاً– العصْيان الفني: فـالفنان – أيًا كان اهتمـامـه الفنـى والمجـال الفنـى الذى يكرِّس حيـاته له – هـو شـخـص يتـأبَّى عن الرضوخ للواقع الخارجى، ولا ينطبع انطباعًا ميكانيكيًا بما هو موجود، بل إنه شخص ثائر فنيًا وعنيد، وذلك لأنه يلح إلحاحًا مستمرًا على استذلال الواقـع الخارجى لإرادته. فهو لا يقتصر على عـصـيـان ذلك الـواقـع الخـارجـى، بل يصـبـو إلى اسـتـعـبـاده واسـتـذلاله، وإخضـاعـه لإمْرته. فـالعـمل الفنـى عبارة عن تعبـير عن ذلك العـصـيان من جهـة، وعن هذا الاسـتـعـبـاد والاسـتـذلال من جهة أخرى.

ثانيًا – التـأبِّى عن العنْعنة: والفنـان بطبـعـه نسـيجٌ وَحْدِه Sui - generis، أى أنه شـخـصـيـة غير مـسبـوقة وغير مَلْحوقة. فهـو شـخـصـيـة فـريـدة، لم تتكرر عَبّر الماضـى، ولن تتكرر أيضًا

عَبْر الحاضر والمستقبل. ومعنى هذا، أن الفنان ينبو عن العَنْعنة، أى الأخذ عن غيره. فهو وإن كان متأثرا بما حوله وبمن حوله، وبمن سبقوه من فنانين عَبْر المكان والزمان، فإنه ينهج نهجًا تفاعليًا، بمعنى أن ما يتلقاه عن الواقع الخارجى من خبرات، لا يكون بمثابة قطع متراصة بعضها إلى جانب بعض، بل إن تلك الخبرات، تتفاعل باستمرار فى قوامه الداخلى، لكى يتشكّل منها مُركَّب خِبْرى، غير مسبوق وغير ملحوق. وكل خبرة تالية، يتلقاها من الواقع الخارجى، بعد تكوين مُرَكَّبه الخبرى، تنخرط فى التفاعل مع ذلك المُرَكَّب الخِبْرى الذى تكوَّن لديه. ومعنى هذا أن بين كل فنان أصيل وفنان أصيل آخر تباينات جوهرية، وليست مجرَّد تباينات ثانوية. فكما أن بصمة الإنسان لا تتطابق مع أى بصمة أخرى من بصمات الآخرين، بل يختص بها وَحْده دون سواه، كذا فإن لكل فنان قِوامَه الخاص به. فتأثره بغيره، لا يعنى أنه ينقل عنه، بل يعنى أنه يتفاعل بجماع قِوامه الخِبْرى، مع العناصر التى تعجبه فيستقبلها، ويُدْرجها لا شعوريًا فى إطار العمليات التفاعلية الخِبرية التى ينخرط فيها. ولاشك أن تأبِّى الفنان عن العَنْعنة، يعنى أنه فى إنتاجه الفنى، لا يكون صادقًا مع ذلك الواقع الخارجى، الذى يتمايز منه، فيقدِّم ما هو مباينًا أو

حتى مناقضًا له. فهو إذن كاذب إذا سلَّمنا بأن الكذب، هو عدم المطابقة بين السلوك وبين الواقع الخارجى.

ثالثًا- الكذب الفنى لاشعورى: وواضح مما ذكرناه، أن التفاعلات الخبِّرية التى تتم بين الفنان وبين الواقع الخارجى من جهة، والتى تتم فيما بين المقوِّمات الداخلية النفسية بعضها مع بعض من جهة أخرى، إنما تحدث بطريقة لاشعورية، أى أن الفنان ينهج ويضرب فى إثْر ما تفرضه عليه داخليته اللاشعورية. فهو لا يكون فى حالة وعى وإدراك لتلك التفاعلات الخبِرية التى تتم بين الخارج والداخل، بل يكون فى حالة تهويم Drowsiness، وهى الحالة التى تقع فيما بين اليقظة والنعاس، أى الحالة التى يكون المرء منخرطًا خلالها فى اللاشعور، ولا يكون مدركًا لما يدور حوله، أو لما يحدث فى دخيلته النفسية من تفاعلات خِبْرية. ولا يقتصر النشاط اللاشعورى على نطاق التفاعلات الخِبرية، بل يمتد ليشمل أيضًا الإنتاج الفنى نفسه. فالفنان فى أثناء قيامه بالإنتاج الفنى، والتعبير عما تم له تراكُبه فى داخليته فى صيغ فنية، إنما يكون منغمرًا فى حالة لاشعورية أيضًا، أى أنه يكون فى حالة التهويم التى أشرنا إليها قبلاً.

رابعًا- الكذب على الذات: والفنان عندما يَفيق من

حـالة الانغـمـار نفـسـيًا فـى إنتـاج عـمله الفنى، فـإنه يكتـشف المُفَارقة بين مـا حمله لاشعوره على إنتاجه، وبين مـا يأخذ به شعوره الواعى، لدرجة أنه يحس كما لو أن جنيًا فى داخله قد غـافله، وفـرض عليـه مـا قـام بإنتـاجـه. فـمـا يقـرره لا شـعـوره، يختلف إذن عمـا يقـرره شعـوره. وبتعـبيـر آخـر فإن الفنان بهذا الموقف المتبـاين فيمـا بيـن اللاشـعـور والشـعـور، يكون قـد كذب على مـا يقـرره بوعـيـه، ويكون قـد خـضـع فى الوقت نفـسـه لما فرضه عليه ذلك الجنّى اللاشعورى، فأنتج ما أنتجه من فن.

خامساً- الكذب على المتلقِّين لفنه: وآخر الأكاذيب التى ينخرط فيها الفنان، هو الكذب على المتلقين لفنه. ذلك أنه فى إجـاباته عن الاسـتـفـسـارات التى يقـدّمـهـا إلى من يُعّجـب بفنه، يأخذ فى تقديم مـا يَنِم عـمـا يعـتمل فى وعيه وشعـوره، وليس عما كان عليه حالُه النفسى وقت إنتاجه الفنى. ومن ثمَّ فإنه لا يكون صـادقًا مع نفسـه، كمـا لا يكون صـادقًا مع من يوجه إليه تلك الاسـتـفـسـارات عن إنتـاجـه الفنى. ذلـك أن مـا صـدر عن اللاشعور أو عن قوامه النفسى وهو فى حالة التهويم، لا يمكن التـعـبـيـر عنه ووصـف مـا كـان يعـتـمل بدخـيلتـه من حـالات لاشعـورية، أو ما يمكن أن يجـد له تفسـيرًا عقـلانيًا بأى حال من الأحوال. فثمة جدار بين اللاشعور والشعور، أو بين طبيعة الشعور وطبيعة اللاشعور، وإن كانت العلاقة بينهما هى علاقة

تضاد وليست علاقة تناقض، أى أن ثمة قنطرة فيما بينهما، كما هو الحال فيما بين النوم واليقظة. فالمرء لايستطيع أن يصف أحواله النفسية التى انخرط فيها أثناء نومه، خلافًا لما يستطيعه وهو يقظان.

وعلينا أن نلقى الضوء بعد هذا على الديناميات التى تعتمل فى قوام الفنان، والتى تحمله على الكذب على نفسه، وعلى من يتلقى إنتاجه الفنى، فنجد أن تلك الديناميات يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً- دينامية الاستغراق الفنى: فالفنان خلال اللحظات الأولى من إنتاجه الفنى، يكون فى حالة شعورية ووعى كامل، ثم يأخذ فى الاستغراق الفنى شيئًا فشيئًا، إلى أن يغوص فى أعماق لاشعوره. وبتعبير آخر فإنه يندمج فى التصورات الذهنية الوجدانية، بحيث يَتَّحد بها، أو تتحد به، ويصيران كلاهما شيئًا واحدًا، أى أن تلك التصورات الفنية تستحيل من القوام الموضوعى إلى صميم القوام الذاتى للفنان. ومعنى هذا أن الإنتاج الفنى الذى يقدِّمه الفنان الأصيل، هو لحم من لحمه، وقوام من قوامه الذاتى، وليس استشفافًا لواقع خارجى، لأن ذلك الواقع الخارجى الذى قد يشير إلى العمل الفنى، يكون قد استحال من كونه واقعًا خارجيًا، إلى كونه جانبًا من الجوانب الذاتية للفنان.

ثانيًا – دينامية العادات الأدائية الفنية: فالفنان يكتسب مجموعة من العادات الأدائية، التى يستعين بها للتعبير عن عمله الفنى. ومن الطبيعى أن المرحلة الأولى التى يبدأ بها الفنان فى اكتساب تلك العادات، يكون الأداء خلالها على مستوى الشعور والوعى، مع المرور فى مراحل التدريب المختلفة، التى تؤدى إلى اكتساب تلك العادات الأدائية. ولكن بعد فترة من التدريب المستمر والمنتظم، فإن عادات الأداء تنسحب من نطاق الشعور، وتهبط إلى نطاق اللاشعور. بالتالى فإن الفنان لا يميِّز بين ما سبق أن اكتسبه من عادات أدائية فنية، وبين الموضوع الذى يَصُب عليه ذلك الأداء الفنى. فالعادات الفنية والموضوعات التى تؤدَّى بتلك العادات الفنية، يتَّحدان سويًا عند الفنان، ولا تكون هناك فُرْقة أو تمايز فيما بينهما.

ثالثًا– دينامية النقد الذاتى: فبعد أن يَفيق الفنان من أداء عمله الفنى على المستوى اللاشعورى، وينخرط فى نطاق الوعى أو الشعور، فإنه يتناول ما قام بإنتاجه لاشعوريًا بنظرة نقدية شعورية واعية. وهو بتناوله ما أنتجه، لايكون ثمة فرق بين تناوله له، وتناوله لأى عمل لأى فنان آخر. ومن هنا فإنه يَنْقد إنتاجه بنظرة موضوعية، وليس بنظرة لاشعورية. وبتعبير آخر، فإنه يُقْحم الموضوعية على الذاتية، بل ويفرض التقييم الموضوعى على الاندماج الذاتى الذى أنتج عمله الفنى من خلاله.

رابعًا- دينامية النمو الفنى: فالواقع أن الفنان ينخرط فى نوعان من النمو: النمو البيولوجى منذ الطفولة، وعبرًا بالمراهقة إلى الشباب، فيصل بذلك إلى قمة النمو البيولوجى، والنمو الفنى الذى يبدأ لديه منذ نعومة أظفاره عن طريق التفاعلات الخبِّرية التذوقية الجمالية. وهذه الدينامية - كما هو واضح من اسمها - تعتمل انطلاقًا من دخيلة الفنان وتَصُّب فى نطاقه الداخلى. بيد أن النمو الفنى يتأتَّى له نتيجة ما يقوم بهضمه من خبرات تذوقية جمالية يستمدُّهما من خارج نطاقه، وعن طريق تمكُّنه واستيعابه للعادات التعبيرية التى تستحيل لديه إلى أداءات شبه لاشعورية، أى أنها تحتل موقعًا فيما بين الشعور واللاشعور. وكلما تمكَّن الفنان من التعبير عما فى دخليته من مركَّبات خبرية فنية جمالية، مع ما يصل إليه من نقد ذاتى، فإنه يصير بالتالى أكثر نموًا ونضجًا من الناحية الفنية. ومن الطبيعى أن الفنان، كلما حصل على خبرات فنية جمالية غزيرة ورفيعة المستوى من خارج نطاقه، وتفاعل معها، فإن أفقه الفنى يزداد رَحَابة، كما يكون نموه الجمالى الفنى أكثر متانة، وأعلى مقامًا وسُمُوًا.

خامسًا- دينامية الانفعال الفنى الجمالى: أخيرًا فإن الفنان يكون بطبعه من الشخصيات التى تحظى بالتدفق الوجدانى الغزير. فما يتأثر به من موضوعات تهز مشاعره

الجمالية، يكون فريداً فى قوته، وغير شائع بين الناس العاديين. فمثلاً عندما يقف على شاطئ البحر، أو على سفح جبل، فإن اهتياجه الوجدانى قد يصل به إلى ذُروة الانفعال، لدرجة أنه قد يبكى بصوت عالٍ، وقد اشتعل وجدانه وتأثر بما يقع عليه بصره من مناظر تأخذ به كل مأخذ، ومن أصوات تعزف على أوتار قلبه، فيندفع فى مشاعره لا يَلْوى على شىء. ويكون لتلك الانطباعات الجمالية، أعمق الأثر فى إنتاجه الفنى. ولكنه وقت انفعاله الوجدانى الجمالى، لا ينتج فنًا، بل يقوم بعملية تخزين خِبْرى وجدانى، يُنْفق منه بالطريقة المناسبة فى أثناء إنتاجه الفنى الجمالى. ومعنى هذا فى الواقع، أن الفوران الوجدانى عند الفنان يعتبر من العوامل الرئيسية فى تشكيل قوام شخصيته الفنية، ولكنه لا يقوم بالتخطيط لما سوف يقدِّمه من نتاج فنى جمالى وقت انفعاله وجدانيًا، بل يترك نفسه طَوْع بَنَان ما يواتيه من إلهامات، تَرِد إليه وقتما تشاء، وفى المكان الذى لا يكون قد حدَّده بشكل مُسْبق.

وخلاصة القول أن الفنان يكون صادقًا مع نفسه، ولكنه يكون كاذبًا بالنسبة للواقع الخارجى، لأنه لا يلتقط صوراً لذلك الواقع ويقدِّمها إلى الناس كما هى، بل يَصْدر عن قوامه الذاتى. فكما أن الماء ليس أوكسوجينًا وليس أيدروجينًا على

الرغم من أنه لا يتركب إلا منهما فحسب، دون أى عنصر ثالث يضاف إليهما، كذا فإن ما يقدمه الفنان على الرغم من أنه مستمد من الواقع الخارجى، فإنه مباين لذلك الواقع جوهريًا، أى أنه لا يكون صادقًا صدقًا موضوعيًا فى تقديمه له، بل يكون كاذبًا إذا زعم أنه متأثر أو ناقل عن ذلك الواقع، وذلك لأنه متفاعل معه، وبالتالى فإن ما يتأتى عن تفاعله به، يكون مغايرًا مغايرة تامة عن ذلك الواقع، فيما يقدمه إلى الناس. فالفنان صادق إذن مع نفسه، وكاذب على الواقع.

* * *

الفصل العاشر

الكذب عند الأديب

من هو الأديب:

بينما لا يوجد لَبْس أو تداخل بين معنى الفنان وأى معنى آخر، فإننا نجد كثيراً من اللبس بين لفظ أديب وبين كل من يشتغل بالكتابة أو المحاضرة. ولذا وجب علينا قبل أن نلقى الضوء على الكذب عند الأديب، أن نحدد ما ينبغى أن ينصَبَّ عليه لفظ الأديب من معانٍ، فنجد أن الأديب هو:

أولاً - من يُعَبِّر عن ذاتيته: وفى هذا يتفق الأديب مع الفنان. فكما أن الفنان يعبِّر عن ذاتيته وتفرديته، كذا فإن الأديب يُعَبِّر عن ذاتيته وتفرديته. ويتضح هذا فى وسيلة التعبير التى يستخدمها كل منهما، فالأديب يَتَّسم بمجموعة من الخصائص والعادات، سواء فى تعبيره الشفوى، أم فى تعبيره التحريرى. ومعنى هذا أنه نسيجَ وَحْدِه، كما سبق أن قلنا بإزاء الفنان.

ثانيًا– التطويع التعبيرى: فسواء قدَّم الأديب أدبه شفويًا، أم قدَّمه تحريريًا، فإنه يكون كَلِفًا باللغة التى يَسوق بها أدبه. على أنه برغم إجادته للتعبير اللغوى، ووقوفه على أسرار تلك اللغة التى يعبِّر بها - سواء كانت لغته الأصلية أم إحدى اللغات الأجنبية - فإنه لا يقلِّد أى أديب آخر، وإن كان يتأثر بمن يُعْجب بهم من أدباء آخرين. فهو يستمر فى الفطام الأدبى فيستقل عن غيره من أدباء، وبذا تتشكَّل لديه شخصية أدبية قائمة بذاتها، ومتميِّزة من شخصيات جميع الأدباء الآخرين. فهو لا ينتحى إلى التقليد، بل تكون له شخصيته وبَصْمته الأدبية الخاصة به.

ثالثًا– الانتحاء إلى الإبداع: وإبداع الأديب، إما أن يكون إبداعًا مُطْلقًا، بمعنى أنه يقدِّم أدبًا غير مسبُوق على الإطلاق، ويكون الرائد فيما يقدِّمه من شعر أو نثر، ولا يكون متأثرًا بأحد على الإطلاق، وإما أن يكون متأثرًا بشخص معيَّن أو بتيار أدبى بالذات، أو يستمد إنتاجه الأدبى من مجال ما من المجالات الإنسانية، كالأحداث الهامة أو التاريخ أو من واقع حضارى يثير خياله. ولكنه يصوغ ما يستمده من المصادر المختلفة بصياغة تنم عن طابعه الشخصى المتميِّز، كما فعل العقاد بصدد عبقرياته.

خصائص الكذب عن الأديب:

وبعد أن قدَّمنا هذه اللمحة السريعة عن مفهوم الأديب، فإن علينا أن نقدِّم خصائص الكذب عنده على النحو التالى:

أولاً- الصدق الأدبى والكذب الأدبى: فكما قلنا بصدد الفنان، من أن هناك صدقًا فنيًا وكذبًا فنيًا، كذا فإننا نقول الشىء نفسه بإزاء الأديب. فلديه صدق أدبى وكذب أدبى. فصدقه الأدبى يتمثَّل فى المطابقة بين مشاعره الأدبية وبين ما ينطق به أو ما يكتبه. أما كذبه الأدبى، فإنه يتمثَّل فى المُفَارقة بين ما يعبِّر به من كلام منطوق أوكلام مكتوب وبين الواقع الموضوعى الذى يشير إليه. فمن طبيعة الأديب، أنه ينحو إلى إعمال خياله فى الموضوعات التى تأخذ بلبِّه. والخيال يقوم بالتكبير والتصغير من جهة، والحذف والإضافة من جهة أخرى، كما يتضمن السباحة فى آفاق الماضى الذى انتهى وجوده، وفى آفاق الحاضر المتقلِّب والمتغيِّر، وفى آفاق المستقبل الذى لم يبزغ بعد إلى الوجود. ومعنى هذا أن الأديب كاذب فيما ينحو إليه ويعبِّر عنه بإزاء الواقع الموضوعى.

ثانياً- تذوق الأدب والمساهمة فيه: فثمة عند الأديب عمليتان أساسيتان: عملية الاستقبال التذوقى الأدبى، وعملية التصدير التذوقى الأدبى. وفى هاتين العمليتين، يكون الأديب

قـائمًا بعـمليـة التـذوُّق والاسـتـمـتـاع بما يَسـتـقبله وأيضًا بما يُصَدِّره، كما أنه فى هاتين العمليتين يتفاعل عقلانيًا ووجدانيًا بين مـا يستقبله ومـا يقوم بتصديره من أدب. ومعنى هذا أنه يكون إيجـابيًا حـتى يتـسنى لـه أن يقـوم بعـمليـة الاسـتـقبـال الأدبى، وذلك لأنه ينفـعل ويشـارك بجمـاع ذهنـه ووجـدانه فى أثناء القراءة الأدبية، أو فى أثناء الإصغاء لما يلقيه الأدباء الآخرون. فهو يتفاعل خبريًا فى تذوُّقه لما يقرؤه ولما يستمع إليه، ثم وهو يعيد صـياغتـه، فيتسنى له أن يقـوم بالإبداع الأدبى، فـلا يكون إبداعـه تصـويرًا مطابقًا لما استقبلـه، بل يكون مباينًا له، وغيـر مَسْبوق، أى أنه لا يكون تعبيرًا صادقًا صدقًا حَرْفيًا معه.

ثالثًا- التذوق الأدبى هو تقييم ذاتى وموضوعى: فالأديب فى تذوقه الأدبى خلال عمليتى الاستقبال والتصدير الأدبيين، يكون فى الوقت نفسه منهمكًا فى عملية تقييم ما يستقبله من أدب، وتقـيـيم مـا يقـوم بتـصـديره منه. والتـقـيـيم ينصَبُّ على المفـردات والعبـارات اللغوية. كما ينصَبُّ على مـوسيقـى الكلام، والاحتـراز من النشوز الصـوتى الكلامى. ناهيك عن أن التقـييم ليس سلبـيًا بالوقوف على قيـمـة مـا يستقبلـه، ومـا يُصدرُه من كلام فحسب، بل إنه يكون إيجابيًا أيضًا، وذلك باستبعاد ما لا يماشى الذوق، ومـا يُستهجن، أو مـا تنبـو عنه القيم الأخـلاقيـة التى يؤمن بها، أو قل إنه تقديم الجديد غيـر المسبُوق. ومعنى

هذا أنه لا يقول الصدق الحَرْفى، بل من الممكن أن نعتبر الأدب الذى يقدّمه كذبًا أدبيًا، وليس كذبًا أخلاقيًا.

رابعًا- تباين سلوك الأديب عن أدبه: فثمة فيما يقدّمه الأديب من أدب، ما يُعرف فى علم النفس بالإسقاط projection. وهو عملية لاشعورية، يقوم الأديب فى أثناء إنتاجه الأدبى، بالتعبير عما قام بكَبْته فى لاشعوره من عناصر أو مواقف أو مشكلات، أو ما يؤلِّب عليه ضميره ويؤنِّبه، ولكنه لا يعترف بأن تلك المكبوتات التى يعبِّر عنها خاصة به، بل ينسبها إلى غيره من الشخصيات التى يتناولها فى قصة أو فى شعر أو فى مقال. وعلى هذا فإن ما يُسقطه الأديب على غيره، فيما يَسُوقه من كلام منطوق أو فى كلام مكتوب فى أعماله الأدبية، لا يكون متطابقًا مع واقعه السلوكى فى علاقاته بالآخرين، بل يكون منحرفًا ومجانبًا لسلوكه الحقيقى، وبالتالى فإنه لا يكون صادقًا فيما يقدّمه من أعمال أدبية.

خامسًا- خَلْق الشخصيات الخيالية: والأديب فى تقديمه لقصة أو مسرحية أو شعر أو غير ذلك من أعمال أدبية، ينزَع إلى خلق شخصيات خيالية غير واقعية. وحتى عندما يَعْرض لشخصيات حقيقية فى أدبه، فإنه يُضفى عليها من خياله صفات لم تكن متَّصفة بها. فهو إذا عرض لشخصية بطل محبَّب إلى قلبه، فإنه ينوطه بأجل الصفات وأفضل

الخصائص. وعلى العكس من هذا، فإنه إذا ما عَرَض فى أعماله الأدبية لشخصية مرذولة لا يحبها، فإنه يُمْطرها بأردأ الرذائل التى يتخيلها. ومعنى هذا، أن موقفه من الشخصيات الخيالية التى يخلقها فى أعماله الفنية، أم بإزاء الشخصيات الحقيقية التى يَعْرض لسيَرها، يُضْفى عليها من خياله الخصائص التى يرغب فى إضفائها عليها. فهو لا يذكر شيئًا عن الرذائل أو الاعوجاجات الأخلاقية بإزاء ما يَعْرض له من شخصيات تاريخية يُجلها، كما أنه لا يذكر شيئًا عن الفضائل والمزايا الأخلاقية بإزاء ما يَعْرض له من شخصيات يُبْغضها، ويَحْمل المتلقين عنه على بغضها أيضًا.

الديناميات السيكولوجية التى تنحو بالأديب إلى الكذب الأدبى:

وعلينا أن نقوم بعد هذا، بإلقاء الضوء على الديناميات السيكولوجية التى تعتمل فى قوام الأديب، والتى تدفع به إلى الانتحاء إلى الكذب الأدبى، فنجد أنها يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً - دينامية الخيال الخصب: فمن المقومات السيكولوجية الهامة لدى الأديب توافر الصور الذهنية الخيالية، وتمتُّعه بمخيلة خصبة. ومن المعروف أن المخيلة هى

الجهاز الذهنى الذى يقوم بتصنيع صور ذهنية خيالية، منحرفة عن الواقع الخارجى، الذى تم استقبال صور ذهنية إدراكية له، أو ما تم الاحتفاظ به من تلك الصور الذهنية الحسية فى الذاكرة. ولاشك أن ما تقوم به المخيلة من تصنيع للصور الذهنية الخيالية، يُشَكِّل ذخيرة هامة لدى الأديب تساعده فى صياغة أعماله الأدبية.

ثانياً- دينامية الإثارة: وهذه الدينامية تَدْفع الأديب إلى تقديم ما يثير خيال من يسمعه أو من يقرأ نتاجاته الأدبية. فهو يتحاشى تقرير الواقع المألوف كما هو، لأنه لا يستثير رغبة القارئ أو المستمع لمواصلة القراءة أو الاستماع، بل يرغب فى تقديم الغريب غير المألوف. فكما أن الناس يُقْبلون باهتمام على ما قد ينشأ بين شخصين أو أكثر من خلافات ومناقشات حادة أو من جدال مُحْتَدم، أو اشتباك بالأيدى، أو الضرب بالعصى أو بالآلات الحادة، وذلك لأن تلك المعارك الكلامية أو المعارك اليدوية، غير مألوفة ومثيرة للتطفل وحب الاستطلاع، كذا فإن الأديب يقدِّم المعارك والمواقف المثيرة فى أدبه، بقصد استثارة شهية القارئ أو المستمع للإقبال على ما ينتجه من أدب. وكلما أمعن الأديب فى الإغراب، كانت بالتالى قدرته على استثارة مستقبلى أدبه أقوى وأفعل.

ثالثًا- دينامية الانتقاء من بين خيارات متعدّدة: وكلما كان الأديب أكثر قدرة على استعراض خيارات أكثر أمامه فى أثناء إنتاجه الأدبى، أعنى وهو ينشىء قصة أو مسرحية أو قصيدة شعرية، أو غير ذلك من أعمال أدبية، ويُحْسن الانتقاء من بين تلك الخيارات، فإن دينامية الانتقاء لديه تكون ذات فاعلية فى إنتاجه الأدبى. وهو فى انتقائه أفضل المقوِّمات من بين الخيارات التى يطرحها أمامه، إنما يكون متسلِّحًا بسلاح التقييم والمفاضلة فيما بينها، حتى تأتى الخيارات التى يقع عليها، ويفضِّلها على غيرها، أكثر إثارة. وبالتالى فإن أعماله الأدبية تكون أكثر رَوْعة وجذبًا للمتلقِّين عنه.

رابعًا- دينامية البحث عن الجديد: فالأديب يهتم بأن يقدِّم ما لم يَسْبق أن قدَّمه أديب غيره من المعاصرين له، أو من السابقين عليه. والجديد الذى يصبو الأديب إلى تقديمه، إما أن ينصبّ على الموضوع الذى يتناوله فى عمله الأدبى، وإما أن ينصبّ على الشكل، أعنى الصياغة الأدبية، أو على الموضوع والصياغة معًا. ولكن كلما تقدمت الحضارة، فإن الجديد الذى يتسنى للأدباء تقديمه، يتقلَّص أكثر فأكثر، وذلك لأن الأدباء السابقين قد غطُّوا معظم وأهم الموضوعات الأدبية. ولذا فإنك تجد أن الكثير من الأدباء المُحْدثين، يعتمدون على العَنْعنة فيما يقدمونه من أعمال أدبية.

خامساً- دينامية العصيان الأدبي: فـــالأديب الحق، لا يرضى لنفسه أن يكون ظلاً لأديبٍ آخر. وحتى الأديب الذى يعجب بأستاذه، أو بأحد الأدباء اللامعين، ويَقْفوه فى مطلع شبابه، فإنه ما أن يشِب عن الطَّوْق، حتى يَنْفُض عن نفسه غبار الخضوع له، ويشق عصا الطاعة عليه، وربما يأخذ فى الكشف عن الأخطاء التى تردًى فيها، أو جوانب الضعف التى شابت أدبه، أو شابت شخصيته. ذلك أن الأديب يصبوْ إلى التفرُّد، فلا يكون مجرد نسخة من أى أديب آخر، مهما كان ذلك الأديب عالى الشأن، ويشهد له النقاد بالتبريز والتفوق الأدبى.

* * *

الفصل الحادى عشر

الكذب عند العالم والفيلسوف

ما الذى يسعى إليه العالم والفيلسوف؟

بينما يقوم العالِم بتناول المحسوسات التى يتضمنها المجال الذى يتخصص فيه بالبحث، بقصد التوصُّل إلى القوانين التى يمكن استشفافها من بحثه، فإن الفيلسوف يتناول تلك القوانين العلمية، ويصعد منها إلى المقررات والنظريات الفلسفية. وبالإضافة إلى هذا فإن الفيلسوف يتناول المعتقدات والقيم والأخلاق والعلاقات البشرية، بل والعلاقات الموجودة بين الكائنات الحية جميعًا، كما يتناول سجل التاريخ بما يشتمل عليه من أحداث ووقائع، بالإضافة إلى ما أسفرت عنه الدراسات النفسية والاجتماعية والسياسية من حقائق، ويخرج من هذا كله بنظرات شاملة، تتصف بالتكامل فيما بينها، ثم يصوغها ويقدّمها فى عمل متكامل. فالفلسفة إذن

شاملة، بينما يقتصر العلم على نطاق مجال معيَّن يحدده العالم أو فريق من العلماء، ولا يخرجون عن إطاره.

النظريات العلمية تَجُبُّ بعضها بعضاً:

وبالنسبة للعلم، فإن الكثير من النظريات التى توصَّل إليها العلماء، قد تعدَّلت أو ثبت بطلانها، وحلَّت محلها نظريات أخرى جديدة كما سبق أن قلنا. فالعالِم صاحب النظرية التى يثبت بطلانها يكون صادقًا مع نفسه، ومع عمله الميدانى وقت القيام بالتجارب العلمية، ووقت توصُّله للنظرية التى ثبت بطلانها بعد ذلك، ولكنه يكون كاذبًا بعد أن ثبت ذلك البطلان، ولم يَعُد العلماء يأخذون بما سبق أن انتهى إليه.

النظريات الفلسفية تَجُبُّ بعضها بعضاً:

والشىء نفسه ينسحب بإزاء الفيلسوف الذى يتناول النظريات العلمية التى انتهى إليها علماء عصره، ويبنى عليها فلسفته. فهو يكون صادقًا مع نفسه، ومماشيًا لما قرره العلم لوقته، ولكنه يكون كاذبًا بعد أن يثبت بطلان القوانين العلمية التى تناولها، وأقام عليها فلسفته. فما ينبنى على باطل فهو إذن باطل، أو بتعبير آخر هو كاذب.

التمييز بين الكذب العلمي والفلسفي والكذب الأخلاقي:

على أننا نميِّز تمييزًا جوهريًا بين الكذب العلمى أو

الفلسفى وبين الكذب الأخلاقى. فنحن فى هذا المقام لا نوجّه اتهامًا إلى العالم أو الفيلسوف بأنهما كاذبين كذبًا أخلاقيًا، بل نقرر حقيقة موضوعية هى أن ما يثبت بطلانه من مقرراتهما، يُعْتبر كذبًا علميًا بالنسبة للعالِم، وكذبًا فلسفيًا بالنسبة للفيلسوف.

ما يترتّب من نتائج على كذب العلماء والفلاسفة:

وعلينا أن نقوم بعد هذا بإلقاء الضوء على النتائج التى يمكن أن تترتّب على كذب العلماء والفلاسفة، فنجد أن تلك النتائج يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً – التشكُّك في قيمة العلم والفلسفة: فمما لاشك فيه، أن المتلقِّين لما يخلُص إليه العلماء والفلاسفة من مقرَّرات ونتائج ونظريات أو فلسفات، تأخذهم الحَيْرة بين التصديق والتكذيب. فهم لا يكونون على ثقة تامة، بأن تلك المقررات والنتائج والنظريات والفلسفات، سوف تظل ثابتة الأركان، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها بعد وقت يقصر أو يطول. ناهيك عن اختلاف العلماء والفلاسفة بإزاء ما يَصلون إليه من نتائج ونظريات فى معاملهم المختلفة. ففى ضوء ما يحمله التاريخ من أحداث تشير إلى التباين، بل وإلى ذلك التضارب فيما بين العلماء والفلاسفة العاملين فى مجال واحد، أو العاملين فى مجالات متباينة، فإن المتلقِّين لتلك

النتائج المتباينة والمتضاربة أحيانًا، يكونون على حَذَر من أن يثقوا ثقة كاملة فيما يصل إلى أيديهم منها. فالذين كانوا متحمّسين للفلسفة الماركسية مثلاً، وكانوا معتقدين فى أنها سوف لا تتزعزع بأى حال من الأحوال، صاروا اليوم لا يثقون فى متانة بنيانها، وبالتالى فإنهم يتوجّسون خيفة بإزاء أى فلسفة سياسية بديلة، يقدّمها أى فيلسوف سياسى، يمكن أن تحل محلها، ويزعم أن فلسفته الجديدة التى حلّت محل الفلسفة الماركسية جديرة بالبقاء.

ثانيًا -النسبية تحل محل الإطلاقية: وفى ضوء التطور المستمر فى العلم والفلسفة، وإتيان الجديد على القديم وتقويضه من أساسه، وتكذيب العلماء والفلاسفة الجدد للعلماء والفلاسفة السابقين عليهم، فإن النظرة النسبية إلى الحقيقة، قد حلّت محل النظرة الإطلاقية. فلقد كان الاعتقاد السائد بإزاء العلم والفلسفة، هو أن الحقائق تقف فى مقابل الخرافات، أو أن الصدق يقف فى مقابل الكذب، ولكن فى ضوء ما يحدث فى مجالَىّ العلم والفلسفة من أن المستحْدَث فى نطاقهما يَجُبُّ ما سبقه، فإن الاعتقاد فى إطلاقية العلم، قد أخذ يتزايل من الأذهان، ومن ثمّ فإن الأرض أخذت تَميد من تحت أقدام العلماء والفلاسفة، إذ إنهم عندما يتوصّلون إلى نظريات أو خلاصات لِما قاموا ببحثه، فإنهم يأخذون فى

التساؤل بينهم وبين بعض، أو بينهم وبين أنفسهم: هل ما توصلّنا إليه وأعلناه على الملأ هو نهاية المطاف وسوف لا ينهار كما انهارت النتائج التى توصل إليها مَنْ سبقونا من علماء وفلاسفة، أم أن ما توصلّنا إليه سوف يظل راسخًا كالطَّوْد الذى لا يتزعزع؟ بيد أن الشك يظل معتملاً فى عقولهم وقلوبهم. فما دام العالَم فى تطوُّر مستمر، ومادام ذلك التطور المستمر هو القانون الرئيسى الذى يخضع له الوجود بأسره، فلماذا نستثنى ما توصلّنا إليه من نظريات ونتائج وخلاصات بَحْثية من قانون التطور. وحتى من يتلقّون من الطلبة عن العلماء والفلاسفة تلك النظريات والنتائج والخلاصات، ينظرون بارتياب وتشكك إلى ما بين أيديهم منها. ولعلنا نزعم أن شباب اليوم قد صاروا ينظرون إلى كل شىء بعدم ثقة. وهم يتساءلون بينهم وبين أنفسهم: «لماذا نستذكر هذه العلوم والفلسفات، وهى آيلة للانهيار بلا مناص، كما انهارت النظريات العلمية والخلاصات الفلسفية السابقة؟ ولماذا نصدّق علماء وفلاسفة اليوم، ولا نكذّبهم، كما اتضح كذب وبهتان علماء وفلاسفة الأمس؟» وما يزيد الطين بِلَّة أن التطورات الحضارية، وما يتواكب معها من بحوث علمية وفلسفية، تسير وَفْق متتالية هندسية تناقصية تضاعفية، أى أن الفترة التى تحياها النظريات العلمية والخلاصات الفلسفية

تستمر فى النقصان بسرعة تضاعفية هائلة. فالنظرية العلمية أو الخلاصة الفلسفية التى كانت تظل مستمرة فى الوجود، وراسخة لمائة سنة، صارت اليوم لا تستمر لأكثر من عشر سنوات أو أقل من ذلك. وشاهد ذلك ما نراه من تطورات تكنولوجية متدفّقة بشكل مذهل، وهى التطورات التى تعتمد فى وجودها على أحدث النظريات العلمية والتوجُّهات الفلسفية. فتدفق تلك النظريات وهذه التوجُّهات، يَتْبعه تدفق أيضًا فى بزوغ التكنولوجيات وانتشارها، بل وفى تطور العلاقات الاجتماعية والقيم الاجتماعية، بل وفى كل شىء يخص الإنسان.

ثالثًا- غموض المستقبل: وعلى الرغم من أن هناك ما يسمى بعلم المستقبلية Futurism وهو علم يتحسَّس المستقبل، ويبذل المحاولات التى يتسنى بواسطتها الوقوف على خطوطه العريضة، فإن الواقع أن العلوم كلها تخضع للنزعة الاحتمالية، ولا تخضع للنزعة الإطلاقية، أى أن النتائج التى تُفْضى إليها البحوث العلمية، ومن ثَمَّ البحوث الفلسفية التى تتبنى على النتائج التى يتوصَّل إليها العلماء، ليست نتائج قَطْعية، بل نتائج احتمالية، أى أنها نتائج ظنية أو بتعبير آخر فإنها نتائج مشكوك فيها، لأنها نتائج يحتمل أن تكون صادقة، كما يحتمل أن تكون كاذبة. والشك فى صدقها هو انتحاء إلى تكذيبها. فالمستقبل إذن غامض، وما يقول به العلماء والفلاسفة

بصدده، ليس صدقًا، وما ليس بصدق فهو إذن كاذب، وذلك لأن أى خدش يصيب الصدق، يحيله إلى كذب.

رابعًا- الأثر السلبى للنظريات العلمية والفلسفية على القيم: فالواقع أن الكثير من الآثار السلبية التى اعتملت فى عقول وقلوب كثير من الشباب، قد نتجت عما ذهبت إليه بعض النظريات العلمية والأيديولوجيات الفلسفية، فاعتنقها كثير من الشباب، ومن ثمَّ اعتملت فى دخائلهم صراعات بينها وبين ما سبق أن تشرَّبوه من قيم دينية وأخلاقية. فكانت النتيجة أن ذهب كثير منهم إلى عدم المبالاة بما سبق أن اعتنقوه، وبما أخذوا به أنفسهم من سلوكيات وعلاقات اجتماعية. ولكن الكثير مما ضربوا به عُرض الحائط من القيم والسلوكيات الدينية والأخلاقية، قد أفاقوا إلى أن الباطل لا يأتيها من بين يدبها ولا من خلفها. ومن ثمَّ فإنهم رجعوا إلى ما سبق لهم إنكاره من تلك القيم والسلوكيات، وذلك عندما لاحظوا أن العلم والفلسفة يتناقضان مع ما سبق لهما التحمس له، والأخذ به. ولعلنا نذكر فى هذا الصدد ما صارت نظرية الاحتمال تحتله من مكانة بإزاء ما يقول به العلم من نظريات، كما نذكر انهيار المذهب الشيوعى الذى تنحَّت عنه روسيا التى نشأ فيها، بعد أن ثبت عدم صدق مقرراته. وبتعبير آخر فإن الاستناد إلى العلم والفلسفة كركيزة تحل

محل الاعتقاد الدينى والأخلاقى هو استناد فى غير محله، وأن العلم والفلسفة لا يضمنان للإنسان الهدوء النفسى، بل إنهما عُرّضة للانهيار، وبالتالى فإنهما مَشُوبان بالكذب، الذى كُشِف عنه النقاب فى الماضى، أو سوف يُكّشف عنه النقاب فى المستقبل القريب أو فى المستقبل البعيد.

خامساً- الشك فى فاعلية العلوم السياسية والقانونية:

فالواقع أن الناس فى موقفهم بإزاء العلوم التطبيقية، لا يهمهم متانتها واتساقها منطقيًا، بل يهمهم مدى فاعليتها وقيمة النتائج التى يمكن أن تؤدى إليها عند تطبيقها. ففى ضوء ما نشاهده اليوم من ازدياد مطَّرد فى فشل تطبيق القانون الدولى فى مجال العلاقات بين الدول المختلفة، وأيضًا فى ضوء النزاعات المستمرة فيما بينها من جهة، والازدياد المطَّرد للجرائم على المستوى القومى وعلى المستوى العالمى من جهة أخرى، فإن الإيمان بجدِّية تلك القوانين، وفاعليتها فى استتباب السلام فى العالم، وفى العلاقات الداخلية بالدول المختلفة، وتوفير العيش فى أمان للمرء، والحفاظ على حقوقه من جهة، وحفاظه على حقوق الآخرين من جهة أخرى، والقضاء على الجرائم التى تهدِّد أو تفتك بأرواح الناس من جهة ثالثة، فإن الشك والارتياب قد ازداد واستفحل بإزاء ما كان يُعتَقد من إطلاقية تلك القوانين العالمية والقومية. وبتعبير

آخر فإن مصداقية تلك القوانين قد بدأت تهتز، كما صارت كثير من الدول، لا تُلْقى بالاً إلى الأمم المتحدة ومقرراتها، كما هو الحال فى موقف العراق الحالى المتَّسم بعدم الاكتراث بل وبالتحدى بإزاء موضوع لجان التفتيش عن الأسلحة الجرثومية وغيرها من الأسلحة المحرَّمة دوليًا (أكْتب هذا الكلام فى يوم الجمعة ١٣ فبراير ١٩٩٨). ناهيك عن الجماعات الإرهابية التى استفحلت جرائمها فى كثير من الدول، وصارت تتحدى الشرعية والنظام والحكومات والقوانين الوضعية، وتشكَّل من أعضائها حكومات تنفَّذ قوانينها الخاصة بها، وتضرب فى الوقت نفسه بالقوانين التى تأخذ بها البلاد التى ينتمون إليها عُرْض الحائط. ومادامت الشكوك قد صارت تَحُوم حولها حول فاعلية وجدوى القوانين والشرائع الدولية والقومية، فإنها لاتكون إذن قوانين تستحق المصْداقية - علمًا بأن كلمة مصداقية مستمدة من لفظ الصِدق - بل تَحُوم حولها شبهة عدم الجدارة بأن تكون محل ثقة. فهى إذن قوانين كاذبة.

* * *

الفصل الثانى عشر

الكذب والأخلاق

أسباب الكذب:

هناك عدة أسباب تدفع ببعض الناس إلى الكذب، لعلّنا نقوم باستعراض أهمها فيما يلى:

أولاً- الخوف من العواقب: فمن أهم دوافع الكذب، خوف المرء من أنه إذا ما قال الحقيقة، والتزم الصدق، فإنه قد يعاقَب بالضرب أو بالسجن، أو بحرمانه من بعض المزايا، أو النظر إليه باحتقار، أو نبذه من بين صفوف أصدقائه، أو غير ذلك من عواقب وخيمة إذا ما قرّر الصدق، واجتنب الكذب.

ثانياً- اجتلاب الفوائد: ومن بواعث الانتحاء إلى الكذب، ورغبة الشخص الكاذب فى أن يجتلب فوائد معيّنة، وهو يعتقد أنه إذا ما قال الصدق، فإن تلك الفوائد سوف تفلت منه، ولا يحوزها.

ثالثاً- الحفاظ علي وضع المرء ومكانته: ومن بواعث الكذب، رغبة المرء في الحفاظ على سمعته، والاحتفاظ بمكانته التى وَصَل إليها فى نظر من يتحدَّث إليهم. فثمة ما يعرف بعاطفة اعتبار الذات Self regading Sentiment، وهى عاطفة تحمل المرء على أن يسلك وِفْق ما يماشى الواقع الذى يوجد به، بحيث يحظى برضى الناس الذين يتعامل معهم، وأن يظل محتلاً موقعًا ممتازًا بينهم، فلا يحطُّون من شأنه، ولايهبِطون بمستوى تقديرهم له، ولا يُنزلونه عن المكانة التى ارتفع إليها بينهم.

رابعاً- الانتقام من الأعداء: ومن بواعث الكذب، كراهية الشخص الكاذب لشخص ما، أو لأشخاص معيَّنين، فيختلق مواقف ويؤلِّف كلامًا يَمَس شرفهم أو سمعتهم، لم يصدر عنهم شىء منها، ولكنه ينسبها إليهم، حتى يَحُط من شأنهم، أو يصيبهم بأضرار مادية أو أدبية. وقد تكون للأكاذيب التى يختلقها ذلك الشخص الكاذب أصول أو جذور واقعية، أو قد تكون صادرة عن ذلك الشخص، ولكن بصورة مخفَّفة، أو صدرت بدافع آخر غير الدافع الذى يَفْترى به ذلك الكاذب، أو بنية أخرى لا تكون نيَّة شريرة. ولكنه ينقلها بحيث يشوِّه ما كانت عليه وقت صدورها، فيُلْبسها من خياله الشرير أثوابًا مزيَّفة بقصد الإضرار به أو تشويه صورته فى أذهان الناس الذين ينقلها إليهم.

رابعًا- دينامية الاعتياد: فالمرء منذ طفولته، وهو يكتسب العادات المتنوعة، أعنى العادات الحركية، والعادات الذهنية، والعادات الوجدانية، والعادات الكلامية التعبيرية، والعادات العلائقية الاجتماعية، والعادات التشوُّفية المستقبلية. والشخص الكذاب يكون قد اكتسب بعضًا من هذه العادات على نحو غير سوى. فقد يكون قد اكتسب عادات ذهنية، وعادات وجدانية، وعادات كلامية تعبيرية، وعادات علائقية اجتماعية، بطريقة منحرفة عن السوية، فيكون كذبه صدى لما اكتسبه من تلك العادات الرديئة.

خامسًا- دينامية التقليد والخضوع لإيحاءات الآخرين:

ومن الديناميات التى تعتمل فى القوام النفسى للشخص الكذاب، دينامية الانصياع لما يعمل الآخرون وَفْقه، ولما يسود سلوكهم من أخلاق. فالشخص الذى نُشِّئ على الانطباع بما يحيط به انطباعًا أعمى، بحيث يتلقى عن الآخرين تفاصيل سلوكهم عن طريق التقليد والإيحاء، ويكون بذلك قد فقد قياد نفسه، فإنه ينقل عنهم جميع ما يتذرَّعون به فى جميع المواقف، وبضمنها المواقف التى يكذبون فيها. فيكذب مثلهم، ولا يتطبَّع بالتفرد بالصدق فى أقواله وتصرفاته.

النتائج الاجتماعية للكذب:

وعلينا أن نقوم بعد هذا بإلقاء الضوء على النتائج

الاجتماعية التى تترتَّب على ما ينتحى إليه المرء مَن كذب، فنجد أنها يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً- فقدان ثقة الآخرين: فالشخص الكذاب، لا يحظى بثقة الناس الذين يتعامل معهم، بل يتشككون فى كلامه، وفى نواياه، وفى حبه لهم، وفى إخلاصه فى علاقته بهم. وبتعبير آخر فإن سلوكه لا يقع فى قلوبهم موقعا حسنًا، بل يكون مرذولاً من جانبهم، ولا يصلح لإقامة جسور الود معه.

ثانيًا- الشعور بأنه شخص جبان: فالواقع أن الصدق صنو للشجاعة، بينما الكذب صنو للجبن. وبناء على هذا، فإن الناس المحيطين بالشخص الكذاب والمتعاملين معه، يُحسون أنه يَصدّر فى كذبه عن خوفه منهم، وعن خَشية من جانبه، لئلا يفتضح ما يخبئه عنهم. ويترتَّب على هذا تجبرُّهم عليه، والاستهانة به، وعدم إقامة أى اعتبار له.

ثالثًا- طمع الطامعين في استغلاله: ومادام المتعاملون مع الشخص الكذاب يكتشفون أمره، ويتأكدون من أنه ينتحى إلى تخبئة الحقيقة عنهم لأنه يرتعد فَرَقًا منهم، فإنهم بالتالى يطمعون فى زيادة الإثقال عليه، واستغلاله وقهره أكثر فأكثر، وهم متأكدين من أنه لن يقاوم جشعهم، وسوف يخضع لمطامعهم، ويسلِّم لهم قياده، ولا يقاوم استنزافهم لما بين يديه، وتحميله أكثر من طاقته.

خامساً- الخيال المريض: فلقد يكون الشخص الكاذب مريضًا بالهلوسات Hallucinations المنظورة أو المسموعة أو الملموسة أو المشمومة أو المُذاقة، ولكنه لا يدرك أن ما يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يشمه أو يذوقه، لا يَمُت للواقع المحسوس بأى صلة، بل إن مخيلته المريضة هى التى قامت بتشكيل تلك الصور الذهنية المزيَّفة، ولكنه يؤكد أنها الحقيقة المؤكدة التى لا يشوبها أى زيف أو بهتان.

الديناميات النفسية للكذب:

وعلينا بعد هذا أن نستعرض الديناميات النفسية التى تعتمل فى قوام الشخص الذى ينتحى إلى الكذب، فنجد أنها يمكن أن تتحدَّد على النحو التالى:

أولاً- دينامية التوافق الاجتماعي: فالشخص الذى يكذب، يحاول بانتهاجه للكذب، أو يحقِّق التكيف مع الواقع الاجتماعى المحيط به، حتى لا يُنَّبذ أو يتنافر مع ذلك الواقع الاجتماعى. فهو يترسَّم القِيَم والمعايير الاجتماعية التى يفرضها المجتمع على أبنائه، ويحاول أن يلتزم بها، وذلك بأن يخفى الحقائق، ويؤكد أنه ملتزم بتلك القيم والمعايير الاجتماعية، وأنه لا يحَيد عنها قيدَ أنملة. فظاهرية سلوكه تتوافق مع السلوك الشائع من حوله، ولكن دخيلته تكون مباينة لما يبديه من سلوك وأقوال.

ثانيًا- دينامية الدفاع عن النفس: فالشخص الذى يكذب، يتَّخذ من كذبه سلاحًا دفاعيًا من جهة، وسلاحًا هجوميًا من جهة أخرى. فهو عندما ينكر ما صدر عنه من تصرفات أو أقوال، فإنه يكون بذلك مستخدمًا سلاحًا دفاعيًا. وعندما يفترى على الآخرين، فيزعم أنه قد صدرت عنهم تصرفات أو أقوال، لم تَصْدُر عنهم فى الواقع، أو عندما يبالغ فيما صدر عنهم، أو عندما يحذف منها ويضيف إليها، فإنه يكون بذلك مستخدمًا سلاحًا هجوميًا.

ثالثًا- دينامية التعويض عن عقدة النقص: فالشخص الكذاب، يكون مصابًا على نحو لاشعورى بالنقص والتخلُّف عن الآخرين. وهذه العقدة تدفعه إلى اللجوء إلى الكذب، فيغالط فيما يقولونه، ويعمد إلى تخطيئهم، والاستهزاء بأقوالهم، واتهامهم بالجهل والتخلُّف عن الركْب، أو بالرجعية، أو بالجمود وعدم التطور. وفى المقابل، فإنه يُضْفى على نفسه صفات غير متَّصف بها، ولكنه كان يتمنى أن يحوزها. فيؤكد لمن حوله بأنه متمتع بها فعلاً، وأنه متميِّز منهم بها، كما أنه يدَّعى التواضع، ويأنف من الكبرياء، وأنه يتأبَّى عن سماع مديح الناس له، مع أنه فى الواقع مَشُوق إلى سماع مديحهم له، بل إنه بتأبِّيه عن سماع المديح، يحاول إسالة لعاب سامعيه، لكى يضاعفوا من جرعات المديح له، والثناء عليه لاتِّسامه بالتواضع وبالأخلاق الحميدة.

رابعاً- كشف أكاذيبه وفَضْحه: والشخص الكذاب، عُرْضة باستمرار لاكتشاف أكاذيبه، وفضحه على الملأ. والواقع أن الناس يربطون فيما بين الميل للكذب والميل للسرقة. فالتاجر الكذاب يتهمه الزبائن عادة بأنه تاجر لص، وذلك لأنه يدأب على أن يقسم بأغلظ الأيمان بأن الأسعار التى يذكرها لهم، لا تسمح له بأن يربح مليمًا واحدًا. ولكنهم يردون على كذبه بأن يعلنوا له عن السعر الحقيقى للسلع التى يكذب بذكر أسعار مغال فيها. وحتى إذا لم يصارحوه بأنه لص، فإنهم ينعتونه فى غيابه بأنه كاذب من جهة، ولص من جهة أخرى.

خامساً- الفشل في الزواج والعلاقات الاجتماعية:

فالشخص الكذاب، ينخرط فى سلسلة متصلة من المشكلات مع أسرته وأقربائه، ولا يحظى باحترام وتقدير جميع من يتعاملون معه. فإذا أراد أن يعبِّر عن رأيه، وأن يعلن عن موقفه بإزاء مسألة ما أو بإزاء مشكلة معيَّنة، فإن جميع الحاضرين ينظرون إليه بهزء وسخرية، أو يقاطعونه فى أثناء كلامه، ويديرون ظهورهم له، ولا يرغبون فى الإنصات إليه، ويعلنون له عن أنهم لا يصدِّقون ما سوف يقوله مقدَّما لأنهم اعتادوا على أن كل ما يفوه به من كلام، وأن كل ما يأتيه من تصرفات، وكل ما يتخذه من مواقف، لا يُعْتَد به، ولا يُعتمد عليه، وليس جديرًا بأن يؤخذ فى الاعتبار. وكلما احتدَّ

وغضب، فإنهم يزدادون تأبيًا عن الاستماع إليه، أو الأخذ بمشورته، أو النظر إليه بأى تقدير أو احترام.

الحالة النفسية للشخص الكذّاب:

وعلينا فى نهاية المطاف، أن نقوم بإلقاء الضوء على الحالة النفسية للشخص الكذاب، بعد أن يفتضح أمره، ويُعْرَف عنه أنه شخص لا يتحرَّى الصدق، فنجد أن هذه الحالة النفسية تتصف بمجموعة من الخصائص التى نقدمها فيما يلى:

أولاً- الإحساس بعدم الترابط بالآخرين: فالشخص الكذاب، ينبذه جميع الناس المحيطين به. ومن ثمَّ فإنه يحس بضآلة شخصيته، وأنه بلا قيمة فى أنظارهم. فمهما حاول أن يسترد ثقتهم الضائعة، فإنه لن يُفْلِح، لأنهم لا يصدِّقون أى كلام يقوله، حتى ولو كان صِدقًا، كما أنهم لا يقيمون أى وزن لأى تصرف نبيل يأتيه، لأن الكذب الذى ارتبط بقوام شخصيته، لا يسمح بأن يقدِّروا أى عمل يصدر عنه يُعتَد به، أو يقام له أى اعتبار.

ثانيًا- الانتحاء إلى العداونية: بيد أن الشخص الكذاب، الذى يَلْقى الاحتقار والازدراء من جانب الناس المحيطين به، يرغب فى التعويض النفسى عما يلاقيه من امتهان وازدراء وتجاهل، وذلك بأن يعتدى على الآخرين، سواء بالألفاظ المنحطة، أم بالإيذاء الجسدى.

ثالثاً- الهرب من المواقف: ويترتب على الشعور بالضآلة وباستخفاف الناس المحيطين به، والمتعاملين معه بشخصيته، وبكل ما يَصدر عنه من كلام أو من تصرفات، هروبه من وجه الناس، والانزواء بعيداً عن غيره، حتى ينجُوَ بنفسه من الهزء والسخرية، أو من إهانته بالتكذيب والصَد، والإحجام عن تقدير أى كلام ينبس به. ولكنه مهما حاول الهروب من العلاقات التى نشأت بينه وبين الآخرين، فإنهم يلاحقونه ويجدون فيه الفرصة السانحة التى لا تعوَّض لصَبٍّ هزئهم عليه، وتفكههم به، وجعله أضحوكة يرفِّهون عن أنفسهم بواسطتها.

* * *

الفصل الثالث عشر

الكذب والحضارة

تأثير الحضارة فى الإنسان؟

ما من شك فى أن للحضارة التى يستظل الإنسان بظلها، أكبر الأثر فيما ينحو إليه من سلوك. فهو بحق ابن للحضارة، وصدى لها، وعليه إذن أن يتواءم مع متطلباتها التى تتطور بسرعة وباستمرار. ولعلنا نقوم فيما يلى بإلقاء الضوء على أهم الجوانب التى تتأثر بالتدفقات الحضارية التى تحيط بالمرء، وتضغط عليه، وتؤثِّر فيه بطريقة أو أخرى، فنجد أن تلك الجوانب تتمثَّل فيما يلى:

أولاً- الجانب العلائقي: والمقصود به، ما تتأثر به العلاقات التى تنشأ بين المرء والأفراد الآخرين، وبينه وبين المجموعات المتباينة. سواء استمرت تلك العلاقات لمدة طويلة، أم كانت علاقات عابرة، سرعان ما تنطفئ بعد بزوغها إلى

حيِّز الوجود. ولاشك أن الحضارة منذ أقل من عشرين عامًا فقط، كان لها تأثير علائقى فى شخصية المرء مباينًا للتأثير العلائقى اليوم ونحن فى نهاية القرن العشرين. فمن الشواهد البادية للعيان، أن الحضارة البشرية وقد بلغت ذُرْوتها، صارت تَفْرض علاقات سريعة وخاطفة بين الأفراد بعضهم وبعض، ولم تعد العلاقات التى تنشأ فيما بينهم علاقات مستمرة وعميقة، بل تَتَّسم بالسطحية. وما يقال عن العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض، ينسحب أيضًا بإزاء العلاقات التى تنشأ فيما بين المجموعات البشرية بعضها وبعض، سواء كانت مجموعات صغيرة أم مجموعات كبيرة.

ثانيًا- الجانب المَصْلحي: ويتعلَّق هذا الجانب بالنفع والضرر. ففى ظل التطورات الحضارية السريعة والمتدفقة، فإن النفع والضرر، قد حلا محل الخير والشر، أو قل إن قيمة المال، قد حلَّت محل قيمة القيم الأخلاقية التقليدية التى كانت سائدة قبل التفكك العلائقى. فما يَهُم الإنسان الحضارى اليوم، هو ما يحدث **هنا والآن**، وما يترتب على الموقف الذى يوجد به الفرد من نتائج. ولاشك أن العلاقات البشرية لم تَعُد علاقات وجدانية، بل استحالت إلى علاقات نفعية. وبتعبير آخر فإن الناس لم يعودوا يحبُّون بعضهم بعضًا باعتبار أن الحب وإشباع العواطف الحميمة، هو الهدف من العلاقات

فيما بينهم، بل صارت النتائج التى يمكن أن تترتّب على علاقاتهم بعضهم ببعض، هى الفَيْصل والحَكَم بإزاء تلك العلاقات. فلم يَعُد السؤال هو: ما مدى حبك لغيرك؟، بل استحال إلى : **ماذا سوف تستفيد من غيرك؟ وما الأضرار التي يمكن أن تحدث لك نتيجة علاقتك به؟**

ثالثًا- الكلام صار وسيلة لتحقيق المصالح: فبعد أن كان الكلام يخدم الأهداف الأخلاقية، فإنه استحال مع التدفقات الحضارية، إلى وسيلة لجَلْب المنافع، وهى التدفقات التى لا تتوقف، وما حملته معها من تغيُّرات فى القيم، وبعد أن صارت القيم المادية صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة، والمهيمنة على العلاقات الفردية والجماعية. ففى ظل الحضارة، لم يَعُد معيار الكلام هو مدى ما يحمله من صدق، بل صار المعيار هو مدى ما يترتب عليه من نتائج مصلحية ومن ذَبٍّ للمضار. فالكلام يكون له قيمة كلما حمل لصاحبه أكبر قدر من المنفعة، ويخلصة من أكبر قدر من الضرر. وقل الشىء نفسه بإزاء العلاقات بين الدول، وما يصرح به الساسة فى المحافل الدولية. فتقاس حُنْكة كل رجل من رجال السياسة، فى ضوء مدى ما يستطيع توظيف تصريحاته لصالح دولته، بغض النظر عن كَوْن ما يقوله صدقًا أم كذبًا.

رابعًا- النسبية انتصرت على الإطلاقية: ومن التغيُّرات

التى واكبت التدفقات الحضارية الشديدة والمتلاحقة، تغلُّب القيم النسبية على القيم المُطْلقة. فلم يَعُد هناك صدْق مُطْلق فى كل مكان وكل زمان، بل هناك كلام يُصَاغ فى ضوء المتطلبات المُلِحَّة، ولخدمة المصالح، وجلب المنافع. فالكلام الذى يُفْضى إلى أكبر قدر من المنافع، ويقى من أكبر قدر من المضار، هو ما ينبغى أن يقال. وبتعبير آخر فإن الصدق صار صدقًا سلوكيًا، وليس صدقًا لفظيًا.

خامسًا- الحيرة والضياع: كانت القيم المطلقة وسيادتها على السلوك، حصن أمان للإنسان عَبْر العصور المتعاقبة، كما كانت هاديًا له فى حياته. فقد كان الصدق اللفظى، أى مطابقة الكلام لما حدث ويحدث وسوف يحدث، سهل الممارسة وَالاكتساب السلوكى. فلم تكن هناك حيرة بإزاء ما يمكن أن يقوله المرء، وما يمكن أن يمتنع عن قوله، بل كان الطريق إلى الفضيلة سهلاً وميسورًا. ولكن بعد سقوط مبدأ الإطلاق من عرشه، وحلول مبدأ النسبية فى القول والتصرف محله، وبعد أن صارت العلاقات البشرية، محكومة بما يَحْكم المال من أحكام، على أساس أن هناك واردًا ومنصرفًا فى تلك العلاقات البشرية، فإن مَنْ تقيم معه أى علاقة، فإنها لابد أن تكون علاقة مؤقتة. وهكذا نجد أنه فى ضوء هذا التطور الذى حدث فى علاقات الناس بعضهم وبعض، فإن ثمة حالة من

الاغـتــراب صــارت تســود أفق المرء النفـســيــة، ولم يَعُد يحس بالاستمرارية فى الحب والود والإخلاص، بل صار يحس بأن صديق اليوم، يمكن أن يستحيل إلى عدو الغد، وأن من تربطه به وشــائج حب مـتـينة، يمكن أن يقـضى على تلك الوشــائج ويشـجـبهـا، أو يمكن أن ينقلهـا إلى غـيـره حسـبـمـا تقـضى به مصـالحه. ذلك أن الحب صار وسيلة لقـضـاء المصالح وتذليل الصعاب، ولم يَعُد غذاءً نفسيًا ضروريًا لسيكولوجية المرء.

الدور الذي اضطلعت به الحضارة:

وبعـد أن قـدَّمنا هذه الجـوانب الخـمـسـة التى تأثرت بالتدفقات الحضارية، فإن علينا أن نقدِّم العوامل الحضارية التى اضطلعت بهذا التأثير، وأنزلت الصدق من عرشه، وصارت توظِّف الكلام فى ضوء ما يمكن أن يترتب عليه من نتائج، والعوامل هى:

أولاً– الأنانية وليس التضحية: فـالمبـدأ الذى تأخـذ به الحضارة وتبشِّر به، هو أن مـا ينبغى أن يسـتـقـر فى العقـول والقلوب من المبادئ الأخلاقية والاجتماعية، هو مبدأ الأنانية، سواء كانت أنانية أسرِّية، أم أنانية فردية. فكل شخص خارج نطاق الأسـرة، هـو شـخص غـريب. أمـا المرء، فـإنه يجب أن يسعى لإحـراز أكبـر قـدر من المنافع. وإذا كـان يحب زوجـتـه وأولاده، فيجب اعتبـارهم إذن امتِـدادًا سيكولوجيًا له، أى أنه

يَدّعم حب نفسه عن طريق ما يتبادله معهم من حب. والواقع أن هذه الأنانية الجمعية، كانت واسعة النطاق، لدرجة أنها كانت تشمل القبيلة أو القرية أو المدينة أو الدولة أو حتى البشرية جمعاء. ولكن مع التدفقات الحضارية المتلاحقة، فإن تلك الأنانية الجمعية قد تقلَّصت لدرجة أنها أصبحت تنحصر بالكاد فى نطاق الأسرة المكونة من زوج وزوجة وأولاد. ولسنا نغالى إذا ما قلنا إن الكثير من الأسر الحديثة صارت مفكَّكة، فصار كل فرد من أفرادها يَعْتبر الأشخاص المكوِّنين لها غرباء عنه، أى أن الأنانية الغَيْرية المتمثلة فى قوام الأسرة التى انبثق منها الفرد، قد تفكَّكت، وصار يَنْظر إلى أفرادها باعتبارهم غرباء عنه.

ثانيًا– الصدق رهن الحب: ومما لاشك فيه، أن المرء لا يكون صادقًا، بحيث يكشف النقاب عن أسراره الشخصية، إلا لمن يثق فى أنه يتبادل الحب معهم. ولكن حيث إن الحب قد انقشع أو كاد من القلوب والألسنة، فقد انقشع الصدق، أيضًا وحل الكذب محله.

ثالثًا– التهديد بالفقر والعوَز: والواقع أن التدفقات الحضارية المستمرة والمتزايدة، قد تواكبت مع عدم استقرار المال فى قبضة أحد. فَغنى اليوم يمكن أن يصير فقير الغد، كما أن فقير اليوم يمكن أن يصير غَنِى الغد. والذى يفشل فى

اقـتناء الثـروة يحـاول أن يُجْهـز على من يمـتلكهـا وينهب مـا يمـتلكه منهـا . ومن لا يسـتطيع أن يُجْهـز بالقـتل والعـدوان الصـريح على الأغنيـاء، فـإنه يُجْهـز علـى مـا يمـتلك الثـروة، مسـتخدمًا فى ذلك الكذب والحِيَل التى يخدعه بها . فكم من غـاصب قـد ارتدى حُلَّة الصَدِيق الوفى، واسـتـعـان بالكذب الكلامى والكذب السلوكى والنفـاق، لكى يصل إلى مـآربه فى الاحتيال على الأغنياء! وكم من شبان عاطلين، يحتـالون على بنات الأغنياء، ويوهمونهن بأنهم يعبدونهن، ويهيمون بهن حبًا وغـرامًا، ولا يسـتطيعـون العيش دون الارتبـاط بهن فى عش زوجية سعيد، زاعمين أن المال لا يهمهم من قريب أو من بعيد، حتى يتسنى لهم أن يقضوا منهن وَطَرهم، فيسـتلبون مـالهن! فالكذب بالنسبة لهم هو السلاح الماضى. أما الصدق فإنه لا يخطر ببالهم، ولا يُشَفّى غليلهم، ولا يحقّق آمالهم فى الثراء.

رابعًا- **البطالة تشجّع الكذب**: لسنا نغالى عندما نقول، إن البطالة أداة فعالة فى انتشار الكذب بين العاطلين. فكم من دَعِى يزعُم لنفسه أنه شخص فاضل، ولكن حياته كلها كذب ونفاق. فالنصّاب والمحتال والمتلاعب بالمستندات، وآكل الحقوق، والمنخرط فى صفوف الأشقياء والإرهابيين، وغيرهم، ليسوا سـوى إفـراز للبطالة التى تُشْعـر المرء بأنه زائد عن حـاجـة المجتمع. ولا يخفى أن الحضارة بما يتواكب معها من تكنولوجيات

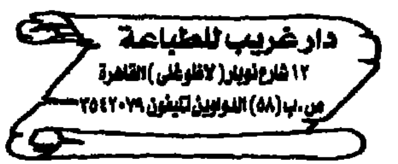
كثيرة فى جميع المجالات، قد أزاحت الكثير من الأيدى العاملة بعيدًا عن نطاق الإنتاج، فانجرف أصحابها إلى مجال الجريمة.

خامساً- الانفتاح على العالم واختلاط القيم: فمما لاشك فيه أن وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، وبخاصة التليفزيون، قد عملت على انفتاح الأطفال والمراهقين والشباب من الجنسين على العالم كله. ومن ثمَّ فإن القيَم قد اختلطت بعضها ببعض، مما أشاع الشك فى قيمة الصدق كأداة ينهج بها المرء فى الحياة. ناهيك عن الأفلام السينمائية التى تهتم بالإبهار أكثر من اهتمامها بالقيم الأخلاقية. فكم من بطل خيالى أو حقيقى ذاعت شهرته فى الآفاق، وصار مثلاً أعلى بين الناشئة يستعين بالكذب والنفاق والجرائم فى مواقفه التى تهز أوتار قلوبهم ويعجبون به! وليس يعزب عن البال أن الشر أسرع انتشارًا بين القلوب من الخير، والكذب أكثر قابلية للذيوع من الصدق.

وخلاصة القول أن الحضارة قد جعلت المواكبة بين الكذب وبين المصالح التى تتأتى عن اتباعه، سواء كان الكذب بالكلام أم بالتصرفات والمواقف، هى الهدف الذى يعمل أبناء الحضارة على محاولة تحقيقه فى حياتهم، وليس الصدق التقليدى، المنحصر فى نطاق التطابق بين الكلام المنطوق، وبين ما حدث ويحدث وسوف يحدث.

* * *

الفهرس


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هذا الكتاب

دراسة سيكولوجية موضوعية تتناول الكذب بطريقة علمية، وتلقى الأضواء عليه، بحيث تتكامل هذه الدراسة الفريدة مع المنهج الحثِّى الوعظى. ولاشك أن المنهج الذى اتبعه مؤلف هذا الكتاب، يساعد الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات، بل ويساعد جميع المثقفين على الوقوف على جليِّة الأمر، وسَبر أغوار جانب هام من سلوك الإنسان فى مراحل عمره المتعاقبة، وفيما يشارك فيه أنشطة إبداعية.

وليس من تعارض على الإطلاق بين المدارسة الموضوعية لمشاكل الإنسان، ومن بينها مشكلة الكذب التى تؤرق المسئولين عن التربية، عندما يكتشفون أن من ينهضون بتربيتهم يكذبون، وبين حَثِّهم على انتهاج طريق الصدق وتقرير الحقيقة كما يعرفونها.

فهذا الكتاب جدير إذن بالقراءة المتمعِّنة وإعادة قراءته للوقوف على منهجه ومضمونه، وهو جدير أيضاً بأن يتربَّع على أحد أرفف مكتبتك الخاصة،،،

هانى أحمد غريب